موسوعة

أخلاق القرآن

الجزء الخامس

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص . ب ٦٥٨٥

الطبعـــة الاولى

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

اخلاق القرآن ج ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، واتباعه واحبابه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين ، واستفتح بالذي هو خير :

« رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنا ، وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ».

« لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ ،
وَلٰكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى
وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ
الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ،
وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولٰئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ » .

سورة البقرة

تصدير

هذا هو الجزء الخامس من موسوعة « أخلاق القرآن » . وهأنـذا أعود مرة أخرى الى رفع يديّ الى السماء قبلة الدعاء ، خاشعا أمام جلال ربي وعظمته ، وفضله ورحمته ، حامدا ربي خير حمد على ما وهب واعطى، ووفّق وهدى ، طامعا مرة أخرى في عطائه وكرمه ، كي يثبت قدميّ على الطريق ، ويواصل عليّ نعمته ، حتى أظل متابعا السير في طريق التشرف بخدمة القرآن المجيد ، متخذا اياه سميري ونصيري ، وظهيري وأميري .

وفي بصري وبصيرتي قول ربي جل جلاله :

« إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً » .

ويقول عز شأنه :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

اللهم ارزقنا نعمة التدبر في كتابك ، والترتيل لآياتك ، والتفكر في ملكوتك ، والاستجابة لاحكامك ، والاستعاذة بك من كل وهم أو خاطر يصرفنا عنك ، فأنت نعم الملجأ وخير مستعان .

وعلى الله قصد السبيل ..

د. احمد الشرباصي

تطلب الأسوة

الأسوة ـ مثل القدوة ـ : ما يؤتس به ، أي يُقتدى به . والاقتداء هو السير على سنن من يتخذ قدوة ، أي مثالا يتبع ، وأتسى فلان بفلان ـ كاقتدى ـ حذا حذوه ، أو نهج نهجه ، في قول أو عمل أو عقيدة .

وتطلب الأسوة هو الحرص على أن يكون أمام الانسان مثل يحتذيه، أو قدوة يتشبه بها ، مع استشعار الانسان روح التأسي الحميد في أعماله وأحواله ، وهذه الصفة الطيبة خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم .

ولا شك أن القرآن العظيم هو أكمل أسوة وأفضل قدوة ، ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الاسراء :

« إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » [1] .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ان أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم » . ومعنى هذا أن المسلم يجب عليه أولا أن يطلب الهدى من الله ، في كتاب الله ،

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٩ .

فان وجد الحكم أو الرأي لم يتجه الى سواه ، وان لم يجد طلبته اتجه الى سنة رسول الله ، ولذلك يقول بعض السلف : كانت الائمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، يستشيرون الامناء من أهل العلم في الامور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فاذا وضح الكتاب والسنة ، لم يتعدوه الى غيره ، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

والقرآن المجيد يقول في سورة الاحزاب عن المثل الاعلى في القدوة والاسوة أمام المسلم ، وهو الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » (١) .

انه ـ كما يذكر القشيري ـ امامكم ، وقدوتكم ، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم . ويعلق الامام ابن كثير على الآية الكريمة ، مبينا أنها أصل كبير في التأسي برسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيقول :

« هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم ، يوم الاحزاب ، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظار الفرج من ربه عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه ، دائما الى يوم الدين .

ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا ، وتزلزلوا واضطربوا من أمرهم يوم الاحزاب :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٢١ .

أي : هــلا اقتديتم به ، وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم . ولهــذا قال تعالى :

« لِمَنْ كَانَ يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » .

وانما كان الرسول أسوة حسنة لأنه الكامل في صفاته وأخلاقه ، وحسبه شهادة الله تعالى فيه ، وهي فوق كل شهادة ، وهي قول الله له :

« وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ » [1] .

والرسول هو القائل : « انما بُعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

والله عز شأنه هو الذي يأمر بالاقتداء بالرسول ، والائتساء بهديه، والاتباع لسنته ، واتخاذه أسوة ومثلا ، ويؤكد ذلك في القرآن أكثر من مرة فيقــول :

« وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[2].

ويقــول :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ » [3] .

ويقــول :

« فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » [4] .

---

(١) سورة القلم ، الآية ٤ .
(٢) سورة الحشر ، الآية ٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

ويؤكد الرسول ذلك فيقول : كل أمتي يدخلون الجنة الا من أبى
قالوا : يا رسول الله ، ومن يأبى ؟
قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى .

والانسان العاقل لا يقبل لنفسه ، ولا يرتضي لذاته ، أن يسير في الحياة كيفما اتفق ، يخطىء مرة ، ويصيب مرة ، دون رائد أو مرشد ، بل ان العقل الحكيم يدعو صاحبه الى أن يتخذ لنفسه قدوة ومثلا ، فينتفع بتجارب من تقدمه أو سبقه ، ولا يتأبى على التقليد في الخير ، والمتابعة في الرشد ، ولذلك قال الحكيم :

فتشبهوا ان لـم تكونوا مثلهم ... ان التشبه بالرجال فلاح

وكلما كان الرائد أعلم وأقوم وأحكم فاز المتطلب للاسوة الرشيدة بخير أعظم وثمر أكبر ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام هو أفضل أسوة وأكمل قدوة . ولقد عقد الطوسي في كتابه « اللمع » فصلا جعل عنوانه : « الاسوة والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه يقول :

« أمر الله عز وجل الخلق كافة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أمرهم بطاعته ، لقوله عز وجل :

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ » .

وقوله :

« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » (١) .

وأمرهم بالقبول منه ، بقوله عز وجل :

« وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ » (٢) .

وأمرهم بالانتهاء عما نهى عنه بقوله جل وعلا :

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٠ .
(٢) سورة الحشر ، الآية ٧ .

« وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » [1] .

ودلهم على الاهتداء باتباعه بقوله تعالى :

« وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » [2] .

ووعدهم الهداية بطاعته بقوله عز وجل : « وان تطيعوه تهتدوا ». وحذرهم الفتنة والعذاب الاليم ان خالفوا أمره ، فقال عز وجل :

« فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ » .

ثم عرفنا الله تعالى أن محبة الله للمؤمنين ، ومحبة المحبين لله في اتباع رسوله ، بقوله عز وجل :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ » .

ثم ندب الله المؤمنين الى الاسوة الحسنة برسوله عليه الصلاة والسلام ، فقال :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » .

ثم يعود الطوسي فيقول :

« فأما الخاصة من هؤلاء الخاصة : لما أحكموا الاصول ، وحفظوا الحدود ، وتمسكوا بهذه السنن ، ولم يبق عليهم من ذلك بقية . استبحثوا أخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، التي وردت في أنواع الطاعات ، والآداب والعبادات ، والاخلاق الشريفة ، والاحوال الرصينة ، وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والاسوة به ، واقتفاء أثره فيما بلغهم من آدابه وأخلاقه ، وأفعاله وأحواله ، فعظّموا ما عظّم ، وصغروا ما صغر ، وقلّلوا ما قلل ، وكثّروا ما كثر ، وكرهوا ما كره ،

(١) سورة الحشر ، الآية ٧ .

(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٥٨ .

واختاروا ما اختار ، وتركوا ما ترك ، وصبروا ما صبر ، وعادوا من عادى، ووالوا من والى ، وفضلوا من فضل ، ورغبوا فيما رغب ، وحذروا ما حذر ، لأن عائشة رضي الله عنها ، سئلت عن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقالت : كان خلقه القرآن . تعني موافقة القرآن .

وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : بُعثت بمكارم الاخلاق » .



واذا كان الامام ابن القيم يقول : ان العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسل الله وأنبيائه وأوليائه وخاصة خلقه ، فان هذا القول من هذا الامام ينبغي له أن يذكرنا بأسوة حسنة لها مكانتها وقيمتها ، وتتمثل هذه الاسوة في أبي الانبياء وخليل الرحمن ابراهيم عليه السلام ــ جد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ــ وفي هذه الاسوة يقول كتاب الله المجيد ، في سورة الممتحنة :

« قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ » (١).

فقد أرشد الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين الى التأسي بابراهيم عليه السلام ، ومن آمن معه ، وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم التي كانت من هداية الله تعالى لهم .

وابراهيم هو داعية التوحيد الاول ، وصاحب الحنيفية السمحة ، ومقاوم الشرك والوثنية في الزمن القديم ، ففيه تتجلى الاسوة ، وتتألق القدوة ، التي تنير الطريق للسائر ، في الثبات على العقيدة ، والاستقامة في الطريقة ، وتقديم حق الله على من عداه ، وابراهيم هو جد محمد ، وهذه السلالة المؤمنة الطاهرة التي تناسلت من ذرية ابراهيم ، وعرفت الطريق الى ربها ، والتزمت النهج الذي سار عليه رائدها وقائدها ابراهيم ، والذي

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية ٤ .

خلفه في التزامه والسير عليه حفيده العظيم محمد عليه الصلاة والسلام . قد تطلبت لها الاسوة والقدوة من ابراهيم ومحمد ، وهكذا ــ كما يعبر صاحب ظلال القرآن ــ « ينظر المسلم فاذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آماد الزمن ، واذا هو راجع الى ابراهيم ، لا في عقيدته فحسب ، بل في تجاربه التي عاناها كذلك ، فيشعر أن له رصيدا من التجارب أكبر من رصيده الشخصي ، وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه .

ان هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمن من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل ما يمر به ، وقد انتهت في تجربتها الى قرار اتخذته ، فليس الامر جديدا ولا مبتدعا ، ولا تكليفا يشق على المؤمنين ، ثم ان له لأمة طويلة عريضة ، يلتقي معها في العقيدة ويرجع اليها ، اذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته ، فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور ، كثيرة الفروع ، وارفة الظلال ... الشجرة التي غرسها أول المسلمين : ابراهيم .

مر ابراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيها المسلمون المهاجرون ، وفيهم أسوة حسنة :

« إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً ، حَتَّى تُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ » (١) .

ثم يضيف : « وفي نهاية هذا العرض لموقف ابراهيم والذين معه ،

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية ٤ .

وفي استسلام ابراهيم وانابته ، يعود فيقرر الاسوة ويكررها ، مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ واليَوْمَ الآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فإِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِي الحَمِيدُ »[1].

فالاسوة في ابراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، هؤلاء الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع ، وسابقة تهدى ، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة ، وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج ، من يريد أن يحيد عن طريق القافلة ، من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق ، فما بالله من حاجة اليه سبحانه :

« فَإِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ » .

وقد كرر القرآن ذكر الاسوة في ابراهيم للتأكيد ، والمراد بالذين معه قد يكون الانبياء ، أو أصحابه المؤمنين ، أو اتباعه الذين آمنوا ، وكلهم خيار ، فيهم قدوة طيبة في التبرؤ من الكفر والاشراك .

وفي سورة الانعام يذكر الحق تبارك وتعالى طائفة من الانبياء والمرسلين ، ثم يقول عنهم :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ، فإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، أُولئكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ،

(١) سورة الممتحنة ، الآية ٦ .

قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ »[1] .

والمعنى ــ كما في تفسير المنار ــ أن أولئك الانبياء هم الذين هداهم الله الهداية الكاملة ، فبهداهم دون غيره ، اقتد أيها الرسول ، فيما يتناوله كسبك وعملك ، مما بعثتك به : من تبليغ الدعوة ، واقامة الحجة ، والصبر على التكذيب والجحود ، وعلى ايذاء أهل العناد والجحود ، ومقلدة الآباء والجدود ، واعطاء كل حال حقها من مكارم الاخلاق وأحاسن الاعمال ، كالصبر والشكر ، والشجاعة والحلم ، والايثار والزهد ، والسخاء والبذل ، والحكم بالعدل ...

... وانما أمره الله أن يقتدي بهداهم الذي هداهم اليه في سيرتهم، سواء ما كان منه مشتركا بينهم ، وما امتاز به في الكمال بعضهم ، كما امتاز نوح وابراهيم وآل داود بالشكر ، ويوسف وأيوب واسماعيل بالصبر ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس بالقناعة والزهد ، وموسى وهارون بالشجاعة وشدة العزيمة في النهوض بالحق ، فالله تعالى قد هدى كلَّ نبي ، ورفعه درجات في الكمال ، وجعل درجات بعضهم فوق بعض ، ثم أوحى الى خاتم رسله خلاصة سير أشهرهم وأفضلهم ، وهم المذكورون في القرآن الكريم ، وأمره أن يقتدي بهم في هداهم ، وهذه هي الحكمة العليا لذكر قصصهم في كتاب الله تعالى ، وقد قرر الحق جل جلاله أن القرآن المجيد قد جاء بالحق وصدق المرسلين ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل ، فعلمنا من هذا أنه عليه الصلاة والسلام كان مهتديا بهداهم كلهم ، وبهذا كانت فضائله ومناقبه الكسبية أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم ، لأنه اهتدى بها كلها ، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم ، الى ما هو خاص به دونهم ، ولذلك شهد الله

(١) سورة الانعام ، الآية ٨٩ و ٩٠ .

تعالى له بما لم يشهد به لأحد منهم ، فقال له :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »[1] .

وأما فضائله وخصائصه الوهبية ، فأمر تفضيله عليهم فيها أوضح وأظهر ، وأعظمها عموم بعثته وختم النبوات والرسالات به ، وكمال الاشياء في خواتيمها ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويرى الرازي المفسر أن موضع الاقتداء والتأسي في الآية السابقة فيه أكثر من قول :

أ ـ يقتدى بهم في القول بالتوحيد والتنزيه لله عن كل ما لا يليق بجماله وجلاله وكماله .

ب ـ يقتدى بهم في جميع الاخلاق الحميدة والصفات الرفيعة .

جـ ـ يقتدى بهم في شرائعهم ، الا ما نسخه الله منها .

ويجوز أن يكون الامور كل هذه الامور .

* * *

واذا انتقلنا من روضة القدوة السامية المتمثلة في أنبياء الله ورسله ، وبخاصة زعيمهم محمد عليه الصلاة والسلام ، نجد القدوة والاسوة تتجلى وراء ذلك في صحابة رسول الله وخلفائه والصالحين من السلف الكريم ، ومن أمثلة ذلك ان عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه أراد أن يقسّم الاموال في مصالح المسلمين ، فقال : هممتُ ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين .

---

(١) سورة القلم ، الآية ٤ .

فقال شيبة بن عثمان : ما أنت بفاعل .

فقال عمر : ولم ؟.

فقال شيبة : لم يفعله صاحباك (يعني النبي وأبا بكر) .

فقال عمر موافقا : هم المرآن يقتدى بهما !..

والاخيار من هذه الامة المؤمنة يدعون ربنا أن يجعلهم قدوة صالحة لغيرهم ، وأسوة طيبة للمتقين من عباد الله ، فهم يقولون لربهم :

« وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إماماً » [1] .

أي أئمة نقتدي بمن قبلنا ، ويقتدي بنا من بعدنا ، فاجعلنا قادة في الخير ، ودعاة هدى يأتم بنا الناس في الخير .

واذا كان الانسان محتاجا الى القدوة يأتم بها ، والاسوة يحتذيها ويقلدها ، ويطمع بعينه وهمته دائما الى مثل أعلى يتجه اليه ويدنو منه ، فلنسأل ربنا نحن أمة الايمان أن يأخذ بنواصينا ليكون القرآن هادينا ، والرسول أسوتنا ، وبذلك نسلك الصراط المستقيم ، ونمشي وراء القدوة الحسنة التي جلاها ربنا في نبينا عليه الصلاة والسلام . وبذلك تتحلى بفضيلة التطلب للاسوة الحسنة ، والله ولي المهتدين .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٧٤ .

التياسر

تقول لغة العرب ــ وهي لغة القرآن الكريم : اليسر هو السهولة والرفق والسعة ، وضده العسر ، والامر يسير ، أي سهل هيِّن . وتيسَّر الشيء : تسهل وهان . واليسرى : الطريقة التي هي أكثر رفقا ولينا . والميسرة : الغنى والسعة في المال . ويقال : يسَّر الله فلانا للخير . وقد يقال : يسره للشر . ولكن المادة تستعمل غالبا في تسهيل الخير .

وياسَرَ فلان فلانا لاينه وطاوعه ، فالتياسر هو الملاينة وتبادل الرفق في المعاملة ، والميل الى روح التيسير والمطاوعة .

والتياسر فضيلة أخلاقية قرآنية ، فالمؤمن انسان سمح سهل ، هيِّن ليّن ، يرجح جانب السهولة واللين على جانب الشدة والعنف .

ولقد وردت مادة « اليسر» في مواطن من القرآن الكريم توحي بالتقدير والتكريم لهذه الفضيلة الاخلاقية ، ولعل من أبرز مظاهر التمجيد لهذه الفضيلة أن ينسب الله تبارك وتعالى الى ذاته القدسية اتصافه بالتيسير والتخفيف على عباده ، فضلا منه وتلطفا ، ولذلك يقول سبحانه في سورة البقرة :

« يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ، وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ » [١] .

أي أن من حكمة الله في تشريعه ــ كما يشير تفسير المنار ــ أن يجعله الله معتدلا وسطا ميسورا ، رحمة بكم وفضلا عليكم ، وفي هذا ترغيب في قبول ما شرعه الحق من تيسير ورخصة ، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه ، والله تعالى لا يريد اعنات الناس بأحكامه ، وانما يريد اليسر بهم ، ويريد خيرهم ونفعهم ، ومن هذه الرحمة أخذ العلماء قاعدتهم التي تقول : « المشقة تجلب التيسير » .

وكأن الله جل جلاله حين يستن مع عباده هذه السنة الكريمة ــ سنة اليسر والسهولة والترفق ــ يوحي اليهم أن يأخذوا أنفسهم بالتياسر والملاينة مع الناس، فقد ذاقوا من قبل حلاوة الرحمة الالهية واليسر الرباني، فاللائق بهم أن يتأثروا بتلك المعاملة ، فتلقي ظلها الكريم عليهم ، فيكون من وراء ذلك مياسرة في طباعهم ، ودماثة في أخلاقهم ، وسهولة في معاملاتهم ، ليعطوا صورة عملية للابرار الذين أفادوا أنفسهم وغيرهم من التطبع بأخلاق القرآن المجيد .

والله عز وجل يقول في سورة القمر :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » [٢] .

وكرر هذا النص الحكيم هنا أربع مرات ، فهو جل شأنه جعل قرآنه شريعة يسودها اليسر والرفق والرحمة :

« لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها » [٣] .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .
(٢) سورة القمر ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

وهو سبحانه يسّر قراءته على ألسنة الناس ، ويسّر علمه على قلوب قوم ، ويسر فهمه على قلوب قوم ، ويسر حفظه على قلوب قوم ، وكلهم من أهل القرآن ، وكلهم من أهل الله تبارك وتعالى .

ويعود القرآن العظيم في سورة الاعلى ليقول :

« وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى » (١) .

أي نوفقك للشريعة السمحة التي يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، ويسهل على الناس تطبيقها والعمل بها ، متى تم لهم الايمان واليقين واذا الله عز شأنه قد تفضل بهذا ، فما أجدر الانسان بأن يقابل الجميل بالجميل ، والصنيع بالصنيع :

« هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ » (٢) .

ويقول التنزيل في سورة الليل :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » (٣) .

أي من أعطى المال والجهد لمعاونة المحتاج ، ووقى نفسه وصانها عن الشر والسوء ، وصدق بأفضل الطرق ، وهو طريق الله جل جلاله ، تفضل الله عليه ـ كما جاء في تفسير جزء عم ـ فيسره لليسرى ، أي هيأه لأيسر الخطتين وأسهلهما في أصل الفطرة، وهي خطة تكميل النفس وانمائها

---

(١) سورة الاعلى ، الآية ٨ .
(٢) سورة الرحمن ، الآية ٦٠ .
(٣) سورة الليل ، الآية ٥ ـ ٧ .

بالكمال ، الى أن تبلغ المقام الذي تجد فيه سعادتها ، وانما كانت هذه الخطة هي « اليسرى » والاسهل لتوافر الدواعي اليها ، وكثرة البواعث عليها ، فالانسان يمتاز عن غيره من سائر الحيوان الاعجم بالتفكير في الاعمال ، وتقدير ثمراتها ، ووزن نتائجها .

وحاجة كل انسان الى أن يعينه غيره حاجة ظاهرة كذلك بالفطـرة ، فاحساسه بحاجة غيره ، واندفاعه الى سدها ، مما تنبه الفطرة الى تجنب الاذى لمن لم يؤذه ، وأن يحذر اتيان أي شيء من القبائح لظهور اضرارها بالناس، فهو مدفوع الى ذلك كله بفطرته الانسانية .

لكنه يحتاج ــ للاستقامة على هذه الطريقة ــ الى صحة عقل ينظـر بنفسه فيما يختار ، ويميز بنظره بين ما ينبغي اتباعه ، وما يجب تجنبــه ، فاذا حقق الانسان ذلك ، وظهرت آثاره في أعماله ، سهل الله تعالى له ما هو مسوق اليه بأصل فطرته ، وهو تكميل نفسه لتسعد بمزاياها في الدنيا والآخرة ، لأن سنة الله جارية في الخلق بأن كل عمل من الاعمال التــي يعملها العاقل ، يفتح له باب بصيرة في نوع ذلك العمل ، ويكون مبدأ عادة للنفس ، تأنس بملابستها ، ففاعل الخير للخير يذوق لذته ، ويجد حلاوته ، فتزيد فيه رغبته ، وتشتد اليه عزيمته ، وهذا من تيسير الله سبحانه عـلى عبــاده .

ويفسر القشيري هذا النص الكريم بما خلاصته : من أعطى من ماله، واتقى مخالفة ربه ومساخطه ، وصدق بالجنة ، والمغفرة ، والشفاعة ، فانا نسهل عليه الطاعات ، ونكرّه اليه المخالفات ، ونزين له القربات ، ونحبب اليه الايمان ، ونجمّل في قلبه الاحسان .

واذا كنا قد عرفنا أن الله جل جلاله قد قال لرسوله عليه الصــلاة والسلام : « ونيسرك لليسرى » فهذه بشرى عظيمة ، ليست مقصورة على الرسول ، بل تشمل أتباعه من ورائه ، اذ تبشرهم بأن دينهم دين يسر ، وأن

نبيهم رسول الرحمة والرفق ، وأن عقيدتهم عقيدة الوضوح والسهولة واليسر ، ولذلك نجد تفسيرا « في ظلال القرآن » ، يبسط بعض ما في هذا النص من ايجاز واعجاز ، فيقول :

« ونيسرك لليسرى » ... بشرى لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبشرى لأمته من ورائه ، وتقرير لطبيعة هذا الدين ، وحقيقة هذه الدعوة ، ودورها في حياة البشر ، وموضعها في نظام الوجود . وان هاتين الكلمتين : « ونيسرك لليسرى » لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هذه العقيدة ، وحقيقة هذا الوجود أيضا ، فهي تصل طبيعة هذا الرسول ، بطبيعة هذه العقيدة ، بطبيعة هذا الوجود : الوجود الخارج من يد القدرة في يسره السائر في طريقه بيسر ، المتجه الى غايته بيسر ، فهي انطلاقة من نور ، تشير الى أبعاد وآماد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود .

ان الذي ييسره الله لليسرى ليمضي في حياته كلها ميسرا ، يمضي مع هذا الوجود المتناسق التركيب والحركة والأتجاه الى الله ، فلا يصطدم الا المنحرفين عن خط هذا الوجود الكبير — وهم لا وزن لهم ولا حساب حين يقاسون الى هذا الوجود الكبير — يمضي في حركة يسيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ، ومع الاحداث والاشياء والاشخاص ، ومع القدر الذي يصرّف الاحداث والاشياء والاشخاص ، اليسر في يده ، واليسر في لسانه ، واليسر في خطوه ، واليسر في عمله ، واليسر في تصوره ، واليسر في تفكيره ، واليسر في أخذه للامور ، واليسر في علاجه للامور ، اليسر مع نفسه ، واليسر مع غيره » .

ومن الواضح عند المتفكر المتدبر أن قول الحق جل جلاله : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » فيه ايحاء قوي بالاتجاه الى خطة التيسير وفضيلة التياسر ، ولذلك يقول صاحب « الظلال » أيضا :

« الذي يعطي ويتقي ، ويصدق بالحسنى ، يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها ، وعندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه سبحانه على نفسه ، بارادته ومشيئته ، والذي بدونه لا يكون شيء، ولا يقدر الانسان على شيء .

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل ، وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة ، وصل وهو بعد في هذه الارض ، وعاش في يسر ، يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله ، وعلى كل من حوله : اليسر في خطوه ، واليسر في طريقه ، واليسر في تناوله للامور كلها ، والتوفيق الهادىء المطمئن في كلياتها وجزئياتها ، وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها ، حيث تسلك صاحبها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في وعد ربه له : « ونيسرك لليسرى » :

« وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى » [1] .

والذي يبخل بنفسه وماله ، ويستغني عن ربه وهداه ، ويكذّب بدعوته ودينه ، يبلغ أقصى ما يبلغه انسان بنفسه من تعريضها للفساد ، ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء ، فييسره للعسرى ، ويوفقه الى كل وعورة ، ويحرمه كل تيسير ، ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا، ينحرف به عن طريق الرشاد ، ويصعد به في طريق الشقاوة ، وان حسب انه سائر في طريق الفلاح » .

ويقول التنزيل الحكيم في سورة الشرح :

---

(١) سورة الليل ، الآية ٨ ــ ١١ .

« فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً . إنَّ مَعَ العُسْرِ يسراً » [1] .

أي ان كل شدة أو عسر معه يسر يهيئه الله تبارك وتعالى للانسان العاقل العامل الآمل ، ولفظة « مع » تفيد معنى المصاحبة والاقتران بين العسر واليسر ، أي لا بد من اليسر مع العسر ، بفضل الله وتوفيقه .

وكلمة « العسر » المكررة في هذا النص الكريم معرّفة بالالف واللام ، فهي ـ كما تقول قواعد العربية ـ عسر واحد ، لأنها تكررت معرفة ، فتكون الثانية هي عين الاولى ، وأما لفظة « يسر » فهي منكرة ، فهي اذن في الموضعين شيئان أو يسران ، وهذا معنى الحديث الوارد في صحيح البخاري : « لن يغلب عسر يسرين » .

والعسر انما يكون في الدنيا بالشدائد التي تنالهم ، وأما اليسر ـ بالنسبة الى المؤمنين ـ فيسران : أحدهما في الدنيا بزوال البلاء وتحقق الرجاء ، واليسر الآخر في الآخرة بالثواب وحسن الجزاء .



والقرآن المجيد يحث على فضيلة اليسر والتياسر مع الذين يستحقون التيسير ، كمن يتعرضون للعسر عند قضاء ما عليهم من ديون ، والحياة ـ كما يقول ـ يوم لك ويوم عليك ، فنرى التنزيل الحكيم يقول في معاملة من عليه دين يعجز عن أدائه في موعده :

« وإنْ كانَ ذُو عُسْرةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ » [2] .

أي ان كان هناك غريم لكم أصابه عسر ، فعجز عن أداء الدين الذي

---

(١) سورة الشرح ، الآية ٥ و٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٠ .

عليه لكم ، فيسّروا عليه ، وأمهلوه الى أن يتيسر له المال ، فيؤديه عندما يتمكن من الأداء .



ونتنقل من روضة القرآن الى روضة السنة ، لنجد من وراء آيات الله البينات الواردة في التياسر والتسامح ، والسعة والرفق ، فيضا من الاحاديث الشريفة ، الداعية الى هذه الفضيلة ، الحاثة عليها ، المذكرة بها ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « بُعثت بالحنيفية السمحة ». أي المستقيمة السهلة الميسرة .

ويقول : « اعملوا وسدّدوا وقاربوا ، فكل ميسَّر لما خُلق له » . أي مهيَّأ مسهل مصروف .

ويقول : « يسروا ولا تعسروا » .

ويقول : « تياسروا في الصداق » أي تساهلوا في المهر ، ولا تتغالوا فيه .

وكذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ــ كما جاء في صحيح مسلم ــ : « ولكن الله بعثني معلما ميسرا » .

وقرر سيدنا الرسول هذه الحقيقة : « ان هذا الدين يسر » . أي سمح سهل قليل التشديد .

وقال : « ان خير دينكم أيسره » .

وفي الحديث كذلك : « انكم أمة أريد بكم اليسر » .

واذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه هو المثل الاعلى لكل مسلم ، بمقتضى قول الله تعالى :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الاخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثيراً »[1] .

فمن واجبنا أنه عليه الصلاة والسلام كان القدوة المثالية في التحلي بفضيلة التياسر والرفق ، والسعة واللين ؛ فيروي الرواة عنه أنه ما خيّر بين أمرين الا اختار أيسرهما ، وفي رواية أخرى عنهم : ما عُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمران أحدهما أيسر من الآخر الا اختار الذي هو أيسر .

كان صلوات الله وسلامه عليه لا يتعنت ولا يتشدد ، ولا يتكلف ولا يتصنع ، بل كان يمضي على طبيعته الاصيلة الكريمة السمحة ، يلبس ما يتيسر من الثياب ، ويأكل ما يتيسر من الطعام ، لا يرجو موجودا ، ولا يطلب مفقودا ، وما عاب طعاما قط ، ان اشتهاه أكله ، وان كرهه تركه دون أن يعيبه .

وكان ينام على ما يتيسر من فراش : نام على السرير ، ونام على الحصير، ونام على النطع ، ونام على الارض ...

وينقل الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » وهو يتحدث عن أخلاق الرسول هذه العبارة :

« يأكل ما حضر ، ولا يرد ما وجد ، ولا يتورع عن مطعم حلال ، وان وجد ثمرا دون خبز أكله ، وان وجد شواء أكله ، وان وجد خبز بر أو شعير أكله ، وان وجد حلوا أو عسلا أكله ، وان وجد لبنا دون خبز اكتفى به ، وان وجد بطيخا أو رطبا أكله ... » .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٢١ .

وعلق الامام العراقي على هذا بقوله : « هذا كله معروف من أخلاقه صلى الله عليه وسلم » .

ومن قدوة الرسول في التياسر وحسن المعاملة أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه ، فاجتنى منها سواكين ، أحدهما معوج والآخر مستقيم ، فأعطى المستقيم صاحبه .

فقال الرجل : يا رسول الله ، كنت أحق بالمستقيم مني .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ما من صاحب يصحب صاحبا ، ولو ساعة من نهار ، الا سئل عن صحبته : أأقام فيها حق الله أم أضاعه ؟.

ولقد تحدث أنس بن مالك فقال : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعتُه : لم صنعتَه ؟. ولا لشيء تركتُه لم تركتَه ؟. ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فان عاتبني أحد من أهله قال : دعوه ، فلو قُدِّر شيء كان !.

ولقد حدث أن دخل أعرابي مسجد الرسول وقعد يبول فيه ، فسارع الصحابة الى منعه والانكار عليه . فمنعهم الرسول قائلا : لا تزرموه (أي لا تقطعوا عليه بولته) وأريقوا على بوله سَجلا (دلوا) من ماء ، فانما بعثتم ميسِّرين لا معسِّرين !.

ثم وجههم الى صيانة المساجد وحفظ نظافتها فقال : ان هذه المساجد لا تصلح لشيء من القَذَر والبول والخلاء .

وهكذا تكون مكارم الاخلاق .

* * *

وللصوفية حديث عن التياسر على طريقتهم :

يقول قائلهم : « اذا قال لك صاحبك : هيـــا . فقلت لـــه : الى أين ؟ فلست بصديق .

وهذا التعبير من أقوى عبارات الحث على التياسر والمطاوعة والسهولة في معاملة الصديق ، فأنت أيها المؤمن المستقيم ، لن تختـــار لصداقتـــك وصحبتك الا المؤمن المستقيم ، ومن هنا لن يدعوك صاحبك هذا الا الى خير ، فطاوعه اذا دعـــاك ، ولا موجب ــ والامر كذلك ــ الى التعاسر أو المجادلة ، والطيور على أشكالها تقع .

جملني الله واياك بزينة السهولة وفضيلة التياسر ، انـــه بالمؤمنـــين رؤوف رحيم .

الاحتساب

تقول اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ : احتسب الانسانُ الشيءَ : عدّه . واحتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوي به وجه الله ، واحتسب عند الله خيرا اذا قدّمه .

والاحتساب قصد ما عند الله من الثواب ، وكذلك الحسبة طلب الثواب ، وهي اسم من الاحتساب ، والحسبة أيضا الاجر ، ويقول القائل: فعلتُ هذا حسبة أو احتسابا ، أي احتسبت الامر فيه على الله . وحسبه الله أي كافيه وكفيل به . واحتسب ولده : أي احتسب الاجر بصبره على مصيبته ، واعتد مصيبته في جملة بلايا الله تعالى التي يثاب على الصبر عليها .

وفي الاحتساب معنى التفويض لله ، ورجاء الثواب من الله ، والرضا بما ساق الله . والاحتساب يكون في الاعمال الصالحة ، وعند المكروهات، وهو البدار الى طلب الاجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها ، طلبا للثواب المرجو منها .

والاحتساب بالمعنى الاخلاقي هو أن يخلص الانسان عمله لربه ، يبتغي به رضاه وحده ، ويقصد به وجهه وحده ، موقنا بأن تقبل الله

العمل هو أعظم ثواب . وأن ما عند الله يغنيه عن كل الناس ، وأن ما عند كل الناس لا يغنيه عن الله، وهو لذلك لم يراء بالعمل، ولم يخادع فيه، ولم يرد به جاها ولا منصبا ولا سمعة ، ولذلك يقوم العبد بالعمل على أحسن صورة ممكنة ، ثم لا يطلب من الناس أي غرض ، وانما عمله لوجه الله وحــده .

وفي الاحتساب معنى أن الله هو الكافي والوافي ، وقــد جــاء في سورة الطلاق قول الله سبحانه :

« وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » (١) .

أي من فوّض الى الله أمره ، وابتغى وجهه ، وتوكل عليه ، فله من الثواب في الآخرة ما يغنيه ويكفيه .

ويقول الحق جل علاه في سورة التوبة :

« فإِنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ » (٢) .

ان الله وحده يكفيني ويغنيني ، فاليه وحده توجهي ، اذ لا معبود لي سواه . وعليه وحده يكون توكلي واعتمادي ، وله وحده الملك والجاه.

وقد أشار « تفسير المنار » الى انه ينبغي للمؤمن أن يتأمل معنى هذه الآية ، ويطالب نفسه بالتحقق به . فانه يجد به من حلاوة الايمان وعــزة النفس ، ما يحتقر به خسائس المادة التي يتكالب عليها الماديون ، ويبخسون أنفسهم انتحارا اذا فاتهم أو أعياهم شيء منها ، وقد ورد في ذلك عن أم

---

(١) سورة الطلاق ، الآية ٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١٣٠ .

الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنهما : « من قال اذا أصبح واذا أمسى: حسبي الله ، لا اله الا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه » .

والقرآن يقص علينا أن الاخيار من عباد الله تعالى هم الذين يجاهدون في سبيل الله ، قاصدين وجه ربهم ، محتسبين عنده أجرهم ، لا يخشون أحدا الا الله ، فيقول عنهم في سورة آل عمران :

« الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»[1] .

وهذا يذكرنا بقول القائل :

على الله حسباني اذا النفس أشرفت على طمع ، أو خاف شيئا ضميرها

والاحتساب هو الذي يعلّم صاحبه أن يراقب ربه ، وأن يشهد جلاله في كل موطن ، لأنه القائم على كل نفس بما كسبت ، العليم بما أظهرت وأبطنت ، ولذلك يقول القرآن الكريم في سورة النساء :

« وَكَفَى باللهِ حَسِيباً »[2] .

أي كفى بالله رقيبا عليكم ، وشهيدا يشهدكم ويحاسبكم على ما أعلنتم وما أخفيتم ، اذ لا تخفى عليه خافية ، وهو يعلم المخلص والمخادع ، والمحتسب والمراوغ .

وقد جاء في سورة الانفال :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٣ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٦ .

« يَا أَيُّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[1]

أي يكفيك الله ويكفي من اتبعك . ومن أسماء اللـه « الحسيب » أي الكافي .



وفي السنة النبوية المطهرة وردت طائفة من الاحاديث الشريفة التي جاء فيها ذكر « الاحتساب » ، بمعنى اخلاصه في عمله وفي توجهه الى ربه، وفي طلب ما عنده لا ما عند الناس .

جاء قوله صلوات الله وسلامه عليه: «من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وجاء في صحيح البخاري قول الرسول عليـه الصـلاة والسلام : « من يقم ليلة القدر ايمانا واحتسابا غـُفر له ما تقدم من ذنبه » .

وجاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من اتبع جنازة مسـلم ايمانا واحتسابا ، وكان معه حتى يصلى عليها ، ويُفرغ من دفنها ، فانـه يرجع من الاجر بقيراطين ، كل قيراط مثل أحد ، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن رجع بقيراط » .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من احتسب ثلاثة من صلبه دخـل الجنـة » .

ويقول أيضا : « اذا انفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة ».

ويقول كذلك : « ان الاعمال بالنية والحسبة » .

وهذا هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يعلّم عبداللـه بن

---

(١) سورة الانفال ، الآية ٦٤ .

عباس رضي الله عنهما ، كيف يتجه بكليته الى ربه ، لا يسأل غيره ، ولا يستعين بسواه ، فالامر بيده ، له الحكم واليه فيقول له :

« يا غلام ، اني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، واذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الامة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام ، وجفت الصحف » .



وحينما وقف رسول الله عليه الصلاة والسلام وقفته الخالدة الماجدة في وجه الشرك والكفران ، يتحدى أهل الطغيان والجبروت ، وهو في قلة من اتباعه والمؤمنين به ، يقول لهم في عزم وتحد وتصميم : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الامر (وهو الدعوة الى الله ، لتعلو كلمة التوحيد ، ويتحقق توحيد الكلمة) ما تركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

حينما وقف رسول الله هذا الموقف العازم الصارم الحاسم ، هذا مثلا أعلى في الاحتساب لوجه الله ، وطلب الثواب والجزاء من الله وحده ولقد عرضوا عليه المال والجمال ، والجاه والمنصب ، فتعالى عن كل غرض ومرض ، وأخلص لله سعيه ، واحتسب عند الله نضاله ، ولم يرتج على ذلك من الناس جزاء ولا شكورا ، فحسبه ربه ناصرا وجازيا ونصيرا ، ولا عجب في ذلك ، فربه تبارك وتعالى هو الذي صنعه على عينه ، وهو الذي أدبه وهذبه ، وهو الذي أيده وعصمه ، وهو الذي قال له في ختام سورة التوبة:

« فإِنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ، لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظيم » [1] .

والرسول العظيم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ هو الذي يشير الى نزعة الاحتساب عنده ، حينما تصاب يده في سبيل ربه ، فيقول :

« ما انت الا اصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت » !

وكأن العمل الذي يقوم به المسلم في سبيل الله ، أو المال الذي ينفقه في سبيل الله ، أو الجهاد الذي يقوم به في سبيل الله ، داخل في صميم « الاحتساب » ، لأن صاحب هذا المجهود يخلصه لوجه ربه ، ولا يريد به منا ولا نفاقا ولا نفعا ماديا عاجلا ، وانما يريد به رضا الله وقبوله ، ويطمع فيما عند الله من ثواب وتكريم .

وعلى هذا التفسير نفهم قول الله جل جلاله في سورة البقرة :

« وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمواتٌ بَلْ أَحياءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ » [2] .

وقوله في سورة البقرة أيضا :

« إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رحيمٌ » [3] .

وقوله في السورة نفسها :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُم في سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٣٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٥٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢١٨ .

أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ ، واللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ واسعٌ عَلِيمٌ ، الَّذِين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً ، لَهُمْ أَجرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ »[1].

وقوله في سورة آل عمران :

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ في سَبيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »[2] .

وقوله في السورة نفسها :

« وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً ، بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِين »[3] .

وهذا هو عمر الفاروق رضوان الله تبارك وتعالى عليه يقول في شأن الاحتساب :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦١ و٢٦٢ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ و١٧٠ و١٧١ .

« أيها الناس احتسبوا أعمالكم ، فان من احتسب عمله كُتب له أجر عمله ، وأجر حسبته » .

ومن كلام الصوفية في هذا المجال قول حاتم الأصم :

« لكل قول صدق ، ولكل صدق فعل ، ولكل فعل صبر ، ولكل حسبة ارادة ، ولكل ارادة أثرة » .

وها هوذا القرآن المجيد يتحدث فيشير الى أن المحتسب يوقن بأن النافع الضار هو الله ، وأنه هو الذي يستحق وحده أن يتوكل عليه الانسان ، فهو نعم الوكيل ، ونعم الكفيل ، فليحتسب لديه طاعته وعمله وقوله وجهاده .

يقول التنزيل الحكيم في سورة الزمر :

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَني بِرَحْمَة هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ » (١) .

وفقني الله واياكم للاحتساب لوجه الله ، والاقتراب من رحاب الله ، واخلاص العمل لوجه الله ، حتى نستوهبه أجره ، ونستمطره ثوابه ، فهو خير الشاكرين .

(١) سورة الزمر ، الآية ٣٨ .

ابتغاء الطيب

الطيب ضد الخبيث ـ قولا كان أم عملا أم شيئا ـ والطيب نعت لما تستلذه الحواس والنفوس ، والصعيد الطيب هو التراب الطاهر ، ومنه قوله تعالى : « فتيمموا صعيدا طيبا » أي ترابا لا نجاسة فيه ، والبلد الطيب : اشارة الى الارض الزكية ، والمساكن الطيبة المستلذة ، وطاب الشيء : لذّ وزكا . وطابت النفس بالشيء : رضيت وسمحت .

والطعام الطيب في الشرع هو ما كان متناولا من حيث ما يجوز ، وبقدر ما يجوز ، ومن المكان الذي يجوز ، فانه متى كان كذلك كان ـ كما يعبر الاصفهاني ـ طيبا ، عاجلا وآجلا ، لا يُستوخَم ، والا فانه ـ وان كان طيبا عاجلا ـ لم يطب آجلا .

والطيب من الناس من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الاعمال ، وتحلى بالعلم والايمان ومحاسن الاعمال ، واياهم قصد القرآن الكريم بقوله :

« الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ » (١) .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٣٢ .

وقوله :

« طِبْتُمْ فادْخُلُوها خَالِدِينَ »[1] .

وابتغاء الطيب ـ أو طلب الطيب ـ فضيلة من فضائل الاسلام العظيم، وخلق من أخلاق القرآن الكريم ، ويراد به أن يحرص الانسان دائما على أن يكون مصاحبا للطيب من القول والعمل والرزق والتصرف ، وقد سبق لي أن تحدثت عن « طيب الكلام » ، ولكن طيب الكلام مقصور على ما ينطق الانسان من كلام سليم قويم ، ولكن « الطيب » أوسع من ذلك وأفسح معنى .

ولقد تحدث القرآن المجيد في مواطن كثيرة عن الرزق الطيب ، والعمل الطيب ، والحياة الطيبة ، وها هوذا مثلا يقول في سورة البقرة :

« يَا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »[2] .

فالارض محشورة بأصناف وأنواع من الاشياء ، منها ما هو خبيث، ومنها ما فيه شبهة ، ومنها ما هو طاهر ، والمسلم من شأنه أن يتحرى ويحتاط ويتحرز ، فيتبين الطيب الكريم ليميل اليه وينتفع به ، ويتبين غير الطيب ليتجنبه ويبتعد عنه .

والله تعالى يأمر الناس هنا بأن يأكلوا من الحلال ، وهو غير الحرام ، أو هو المباح والمستلذ ، بشرط ان يكون طيبا غير خبيث ، وقيل ان الطيب هو ما لا يتعلق به حق من حقوق الغير .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٦٨ .

وكما يكون الطيب رزقا يؤكل أو يستعمل يكون عملا ، كما يقول القرآن :

« وَلا تَتَبَدَّلُوا الخَبيثَ بالطَّيِّبِ » [1] .

أي لا تتبدلوا الاعمال السيئة بالاعمال الصالحة . وانما تصدر الاعمال الطيبة عن أناس طيبين ، وحينما قال التنزيل الحكيم :

« وَالطَّيِّباتُ للطَّيِّبِينَ » [2] .

قال أهل التفسير ان المعنى : الاعمال الطيبة تكون من الطيبين ، وردوا في ذلك : « المؤمن أطيب من عمله ، والكافر أخبث من عمله » .

وقد يكون الطيب مكانا وعنه حدثنا القرآن المجيد عن «البلد الطيب» الذي يخرج نباته باذن ربه ، وعن « المساكن الطيبة » في جنات عدن ، وحدثنا عن « طوبى » ومعنى الكلمة « الحسنى » ، وقيل انها اسم للجنة، أو اسم لشجرة فيها . يقول الحق جل جلاله في سورة الرعد : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . وقيل انه اشارة الى كل مستطاب في الجنة ، من بقاء بلا فناء ، وعز بلا زوال ، وغنى بلا فقر .

ويقول القرآن الحكيم في سورة البقرة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ، واشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ » [3] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٢ .
(٢) سورة النور ، الآية ٢٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .

فالله تبارك وتعالى يريد من أهـل الايمـان والهـداية أن يتدبروا ويتبصروا ، فيختاروا من بين الانواع والالوان الطيب ـ وما أكثره ـ وأن يكون ذلك خلقا من أخلاقهم ، وعادة دائمة من عاداتهم ، وحلية يزدانون بها في حياتهم ، حتى يكونوا من العـابدين الشاكرين المستحقين للرضـا والرضوان .

وفي معنى الآية الكريمة جاء الحديث النبوي الشريف الذي رواه الامام مسلم في صحيحه وهو يقول :

« أيها الناس ، ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا ، وان اللـه أمـر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :

« يا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صَالحاً ، إِنِي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم » [1] .

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ » [2].

ثم ذكر الرجـل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه الى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، وشـربه حرام ، وملبسه حرام ، وغـذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » ؟.

ولنتأمل طويلا في خطاب الله لرسله :

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً » .

فهـو سبحانـه قـد أمـر بالاكـل مـن الطيبـات قبـل الامر بالعمل الصـالح ، لأن الاكل من الطيبات أمر مهم ، ولأنه يعـاون عـلى

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .

العمل والابتداء بالطيب يؤدي الى طيب مثله ، ما دامت النيـة صالحـة ، والوجهة مخلصة .

وحينما أمر الحق سبحانه بالاكل من الطيبات ، نهى عن الطغيـان ــ حتى فيما يباح ــ لأن الطغيان جموح أو اسراف يؤدي الى انحراف أو اعتساف ، ولذلك يقول في سورة طه :

« كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَلا تَطْغَوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى »[١] .

وكما نهى التنزيل المجيد عن الطغيان عند الاكل من الطيب ، نهى عن التشديد والتعسير والتحريم للطيبات التي هيأها الله وأباحها ، والطريقة المثلى هي الطريقة الوسطى التي تتنزه عن سفه الانطلاق وحمق التضييق ، يقول الحق في هذا المجال في سورة المائدة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ، وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ »[٢] .

وهذا أبو عبدالله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي في كتابـه « الجامع لأحكام القرآن » يعلق على الآية الاولى بهذه العبارة : « قـال علماؤنا رحمة الله عليهم في هذه الآية وما شابهها . والاحاديث الواردة في

---

(١) سورة طه ، الآية ٨١ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٧ ــ ٨٨ .

معناها ، رد على غـلاة المتزهدين ، وعلى أهل البطالة من المتصوفين ، اذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه ، وحاد عن تحقيقه .

قال الطبري : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه ، من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ، اذا خاف على نفسه باحلال ذلك بعض العنت والمشقة . ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم التقبل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر انما هو في فعل ما ندب عباده اليه ، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنّه لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون ، اذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فاذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان ، اذا قدر على لباس ذلك من حلّه ، وآثر أكل الخشن من الطعام ، وترك اللحم وغيره حذرا من عارض الحاجة الى النساء .

قال الطبري : فان ظن ظان أن الخير في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة الي أهل الحاجة فقد ظن خطأ ، وذلك أن الاولى بالانسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة ، لأنها مفسدة لعقله ، ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سببا الى طاعته .

وقد جاء رجل الى الحسن البصري فقال : ان لي جارا لا يأكل الفالوذج .

فقال : ولم ؟.

قال : يقول لا يؤدي شكره .

فقال الحسن : أفيشرب الماء البارد ؟.

فقال : نعم .

فقال : ان جارك جاهل ، فان نعمة الله في الماء البارد أكثر من نعمته عليه من الفالوذج .

قال ابن العربي : قال علماؤنا : هذا اذا كان الدين قواما ، ولم يكن المال حراما ، فأما اذا فسد الدين عند النـاس ، وعمّ الحرام ، فالتبتـل أفضل ، وترك اللذات أولى ، واذا وجد الحلال فحال النبي صلى الله عليه وسلم أفضل وأعلى » اهـ .

وهذا هو الصحابي الجليل ، المجاهد الصـابر على الاذى عثمان بن مظعون ، الذي ذكرت تفاصيل بطولتـه في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام »[1] يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له : لو أذنت لي فطلقت خـَولة (زوجته) وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ، ولا أنام بليل أبدا ، ولا أفطر بنهار أبدا .

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « ان من سنتي النكاح ، ولا رهبانية في الاسلام ، انما رهبانية أمتي الجهـاد في الاسلام ، وخصـاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتي أنام وأقوم، وأفطر وأصوم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

فقال عثمان : والله لوددت يا نبي الله أن أعلم أي التجارات أحب الى الله فأتجر فيها .

فنزل قول الله تعالى في سورة الصف :

---

(١) انظر ترجمة عثمان بن مظعون في كتابي « فدائيون في تاريخ الاسلام » ص ٣٤٧ ـ ٣٥٢ طبع دار الرائد العربي ، الطبعة الاولى ، سنة ١٩٧٠ م .

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِن عَذابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ » (١) .

ولقد كان عثمان ـ فيما يذكر ابن كثير في تفسيره ـ لا يدنو من زوجته ، وكان يقال لها « الخولاء » فأتت السيدة عائشة ، فقالت لها أم المؤمنين : ما بالك يا خولاء متغيرة اللون ، لا تمتشطين ولا تطيبين ؟. فقالت : وكيف امتشط وأتطيب ، وما رفع زوجي عني ثوبا منذ كذا وكذا ؟.

ولما علم الرسول بذلك أرسل الى عثمان ، وسأله عن خبره ، وقال له : مالك يا عثمان ؟.

فقال : اني تركته لله ، لكي أتخلى للعبادة . وذكر للنبي أنه يريد أن يجب نفسه .

فقال له النبي : أقسمت عليك الا رجعت فواقعت أهلك .

فأجاب : يا رسول الله اني صائم (تطوعا) .

فقال له : أفطر .

وأطاع عثمان .

---

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ ـ ١٣ .

وعادت الخولاء الى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ، ألا اني أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم . وأنكح النساء ، فمن رغب عني فليس مني » . فنزل قوله تعالى :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا » .

ولقد وصف القرآن الكريم رسول الله في سورة الاعراف : فقال فيما قال :

« وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ » (١) .

فكأن احلال الطيبات ، والدعوة اليها ، والاخذ منها في اعتدال وقسط ، هدف من أهداف دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفي سورة المائدة يقول الحق عز شأنه :

« يَسْأَلُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ » (٢).

وذكر أهل التفسير أنه عندما نزل قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ... » الآية خشي المسلمون الاولون أن يأكلوا من شيء حرام ، فأخذوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المباح ، فنزل قوله تعالى : « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات » وقد علق تفسير « في ظلال القرآن » على الآية بقوله :

« ويبدو أن آية التحريم قد جعلت المسلمين يتحرجون أن يتناولوا

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٥٧ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ٥ .

شيئا قبل أن يستيقنوا من حله ، والناظر في تاريخ القوم وقتذاك يلمح هذا التحرج من كل ما كانوا يأتونه في الجاهلية ، خشية أن يكون الاسلام قد حرمه ، وتلك آية تأثرهم العميق البالغ بالعقيدة الجديدة ، لذلك سألوا : ماذا أحل لهم ؟ ليكونوا على يقين من حله قبل أن يقربوه .

فكان الجواب : قل أحل لكم الطيبات . وهو جواب يستحق الانتباه، اذ يلقي في حسهم أنه لم يحرموا طيبا ، ولم يمنعوا عن طيب ، وأن كل الطيبات ما تزال لهم حلالا ، فلم يحرم الا الخبيث .

والواقع أن كل ما حرم تستقذره الفطرة السليمة بطبعها من الناحية الحسية كالميتة والدم ولحم الخنزير ، أو ينفر منه الضمير السليم كالذي أهل به لغير الله ، أو ما ذبح على النصب أو الاستقسام بالازلام » .



ونقبل من وراء القرآن المجيد على روضة السنة الشريفة فاذا هي تتبع خطواته في الدعوة الى التحلي بالفضيلة القرآنية الجميلة وهي فضيلة ابتغاء الطيب ، أو تطلب الحلال ، فيقول الحديث : « طلب الحلال فريضة » . ولما قال صلوات الله وسلامه عليه : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . قال بعض العلماء : أراد به طلب علم الحلال والحرام .

وروى الطبراني الحديث التالي : « من سعى على عياله من حلال ، فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف ، كان في درجة الشهداء » .

وأخبرنا سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن رضا الله لا يناله الانسان الا اذا حرص على ابتغاء الطيب ، وحرص على تجنب الخبيث ، فقال : « لا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فان الله لا ينال ما عنده بمعصيته » . ولقد روى الترمذي حديثا

يقول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

وفي « الاحياء » يفصل الغزالي القول نوعا من التفصيل فيقـول : « الناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين ، والاقرب الى الاعتدال هو الثـالث : الذي شغله معاشه لمعاده ، فهو من المقتصدين ، ولن ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد ، ولن ينتهض من طلب الدنيا وسيلة الى الآخرة وذريعة ، ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة » .



ثم يأتي الصوفية بطريقتهم الخاصة وأسلوبهم المتميـز ، فيعطـون فضيلة « ابتغاء الطيب » حقها من الرعاية ، فنرى ابراهيم بن أدهم يأكـل الزبد والعسل والخبز الجيد ، فيقال له : أتأكل هذا كلّه ؟.

فيجيب : اذا وجدنا أكلنا أكل الرجـال ، واذا عدمنـا صبرنا صبر الرجـال !.

وروي أن الاوزاعي لقي ابراهيم بن أدهم وعلى عنقه حزمة حطب ، فقال له : يا أبا اسحاق ، الى متى هذا ؟ اخوانك يكفونك .

فقال : دعني من هذا يا أبا عمر ، بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة !.

ويتعمق القشيري بعض التعمق حين يتعرض في « لطائف الاشارات» لتفسير قوله تعالى في سورة البقرة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

وَاشْكُرُوا للهِ إنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ »[1] .

فيقول : « الحلال ما لا تبعة عليه ، والطيب الذي ليس لمخلوق فيه منة ، واذا وجد العبد طعاما يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب » .

وتتناثر من أفواه الصوفية الاعلام كلمات مضيئة حول الطيب وابتغائه ، فيقول سهل : « النجاة في ثلاثة : أكل الحلال (الطيب) ، وأداء الفرائض ، والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم » .

ويقول أبو عبدالله سعيد بن يزيد الساجي : « خمس خصال بها تمام العلم ، وهي معرفة الله عز وجل ، ومعرفة الحق ، واخلاص العمل لله ، والعمل على السنة ، وأكل الحلال (الطيب) ، فان فُقدت واحدة لم يُرفع العمل » .

ويعود سهل فيقول : « لا يصح أكل الحلال (الطيب) الا بالعلم ، ولا يكون المال حلالا حتى يصفو من ست خصال : الربا والحرام والسحت والغلول والمكروه والشبهة » .

ونرى بعض الصوفية يتشددون أو يتزمتون قليلا ، ومن ذلك في فهمنا أن سائلا سأل ابن المبارك عن الرجل يريد أن يكتسب ، وينوي باكتسابه أن يصل به الرحم ، وأن يجاهد ، ويعمل الخيرات ، ويدخل في آفات الكسب لهذا الشأن ؟

فيقول ابن المبارك : ان كان معه قوام من العيش بقدر ما يكف نفسه عن الناس ، فترك هذا أفضل ، لأنه اذا طلب حلالا ، وأنفق في حلال ، سئل عنه ، وعن كسبه ، وعن انفاقه ، وترك ذلك زهد ، فان الزهد في ترك الحلال .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٢ .

وقـد يتسع الشطط حتى يزعم زاعمون من كَذَبة المتصوفـة أن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احرموا أنفسكم طيب الطعـام ، فانمـا قوى الشيطان أن يجـري في العروق منها » . وهذا الحديث المنسوب الى رسول الله لا تصح نسبته ، وقد ذكر القرطبي في تفسيره أنه لا أصل لهذا الحديث ، ولا صحـة لـه ، لأن القرآن الكريم يرده ، والسنة الثابتة بخلافه .

فلنسأل المولى جل شأنه أن يهبنا من فيض فضله همة في ابتغاء الطيب وطلب الحلال ، انه ذو الجلال والاكرام .

النبتــل

كلمة « التَّبتُّل » فيها معنى الانقطاع ، وهي من مادة « البَتْـــل » ــ بفتح فسكون ــ وهو القطع ــ ويقال : تبتَّل اليه : انفرد له في طاعته، وأفرد نفسه له . كما في التبتل معنى الاخلاص والتنزه عن الرياء والسمعة، والمرأة البتول ــ بوزن صبور ــ هي المنقطعة عن الرجال ، التي لا رغبة ولا شهوة لها فيهم ، وقيل ان البتول هي المنقطعة عن الدنيا الى الله تبارك وتعــالى .

والتبتل بالمعنى الاخلاقي الاسلامي هو الانقطاع الى الله باخــلاص العبادة له ، كما في قوله عز وجل :

« وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » [1] .

والتبتل خلق من أخلاق القرآن ، وفضيلة من فضائل الايمان ، ولكنه خلق من أخلاق الخاصة ، بل خلق من اخلاق خواص الخاصة ، بل هو خلق من اخلاق النبوة ، وفضيلة من فضائل سيدنا ورائدنا وقائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولذلك ذكره القرآن الكريم في آية واحــدة ، في سورة المزمل ، خاطب بها الرسول ، فقال فيها :

---

(١) سورة البينة ، الآية ٥ .

« وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً » [١] .

وكأنه يريد سبحانه ــ وهو أعلم بمراده ــ أن يقول لحبيبه وصفيه: انقطع لعبادة ربك ، وتفرغ لطاعته ، واستغرق في مراقبته ، ولذلك قال الازهري في تفسير لفظ « تبتل » : معناه انقطع اليه .

وأقبل المفسرون على الآية السابقة يوضحون معناها ، ويقرّبون مغزاها ، فالامام ابن كثير مثلا يفسرها بهذه العبارة : « (واذكر اسم ربك) أي أكثر من ذكره ، وانقطع اليه ، وتفرغ لعبادته ، اذا فرغت من أشغالك. وما تحتاج اليه من أمور دنياك ، كما قال تعالى : « واذا فرغت فانصب » أي اذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال » .

ويرى القرطبي أن معنى : وتبتل اليه تبتيلا ، هو : انقطع بعبادتك اليه ، ولا تشرك به غيره .

ويعبر الزمخشري في الكشاف عن الآية بهذه الكلمات (واذكر اسم ربك) ودم على ذكره في ليلك ونهارك ، واحرص عليه ، وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح وتهليل وتكبير، وتمجيد وتوحيد، وصلاة وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعات ليله ونهاره (وتبتل اليه) وانقطع اليه .

ويذهب المفسر أبو السعود الى أن الامر بالذّكر هنا معناه الدوام على ذكر الله عز شأنه ليلا ونهارا ، على أي وجه كان هذا الذكر ، وأن الامر بالتبتل معناه الانقطاع الى الله بمجامع الهمة ، واستغراق العزيمة في مراقبته سبحانه .

ويختار مجاهد أن معنى وتبتل اليه تبتيلا ، هو أخلص له اخلاصا .

---

(٢) سورة المزمل ، الآية ٨ .

ويرى ابن حجر ان هذا تفسير بالمعنى ، والا فأصل التبتل هو الانقطاع ، فالمعنى في الاصل : انقطع اليه انقطاعا ، لكن لما كانت حقيقة الانقطاع الى الله انما تقع باخلاص العبادة له ، فسرها بذلك .

وأما الفخر الرازي فقد أورد في تفسير الآية كلاما دقيقا عميقا شبيها بأسلوب الصوفية حين يتحدثون عن سرائر الارواح ودقائق الاخلاق ، وقد جرى الرازي في كلامه على طريقة البسط والتوسع ، وقد يكون من تمام المعرفة أن نستوعب حديثه في هذا المجال ، وان امتد المقال :

« هذه الآية تدل على أنه سبحانه تعالى بشيئين :

أحدهما : الذكر .

والثاني : التبتل .

أما الذكر فاعلم أنه انما قال : « واذكر ربك » هاهنا ، وقال في آية أخـرى :

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيْفَةً » .

لأنه لا بد في أول الامر من ذكر الاسم باللسان مدة ، ثم يزول الاسم ويبقى المسمى ، فالدرجة الاولى هي المراد بقوله ههنا : واذكر اسم ربك . والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الاخرى : واذكر ربك في نفسك .

وانما تكون مشتغلا بذكر الرب اذا كنت في مقام مطالعة ربوبيته ، وربوبيته عبارة عن أنواع تربيته لك ، واحسانه اليك ، فما دمت في هذا المقام تكون مشغول القلب بمطالعة آلائه ونعمائه ، فـلا تكون مستغرق القلب به ، وحينئذ يزداد الترقي ، فتكون مشغولا بذكر الهيته ، واليـه الاشارة بقوله : « اذكروا الله كذكركم أباءكم » .

وفي هذا المقام يكون الانسان في مقام الهيبة والخشية ، لأن الالهية

اشارة الى القهارية والعزة والعلو والصمدية ، ولا يزال العبد يبقى في هذا المقام مترددا في مقامات الجلال والتنزيه والتقديس ، الى أن ينتقل منها الى مقام الهوية الاحدية ، التي كلّت العبارات عن شرحها، وتقاصرت الاشارات عن الانتهاء اليها ، وهناك الانتهاء الى الواحد الحق ، ثم يقف لأنه ليس هناك نظير في الصفات ، حتى يحصل الانتقال من صفة الى صفة ، ولا أن تكون الهوية مركبة حتى ينتقل نظر العقل من جزء الى جزء ، ولا أنها مناسبة لشيء من الاحوال المدركة من النفس حتى تعرف على سبيل المقايسة ، فهي الظاهرة لأنها مبدأ ظهور كل ظاهر ، وهي الباطنة لأنها فوق عقول كل المخلوقات ، فسبحان من احتجب عن العقول بشدة ظهوره ، واختفى عنها بكمال نوره.

وأما قوله تعالى : « وتبتل اليه تبتيلا » ففيه مسألتان :

المسألة الاولى : اعلم أن جميع المفسرين فسروا التبتل بالاخلاص ، وأصل البـتل في اللغة القطع ، وقيل لمريم : البتول ، لأنها انقطعت الى الله تعالى في العبادة ، وصدقة بـتلة : منقطعة من مال صاحبها .

وقال الليث : التبتل تمييز الشيء عن الشيء .

والبتول كل امرأة تنقبض عن الرجال ، لا رغبة لها فيهم .

اذا عرفت هذا فاعلم أن للمفسرين عبارات :

قال الفراء : يقال للعابد اذا ترك كل شيء ، وأقبل على العبادة : قد تبتل : أي انقطع عن كل شيء الى أمر الله وطاعته .

وقال زيد بن أسلم : التبتل رفض الدنيا مع كل ما فيها ، والتماس ما عند الله .

واعلم أن معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريون ، لان قوله : « وتبتل » أي انقطع عن كل ما سواه فالمشغول بطلب الآخرة غير متبتل الى

معرفة الله لا الى الله (هكذا) .

فمن آثر العبادة لنفس العبادة ، أو لطلب الثواب ، أو ليصير متعبدا كاملا بتلك العبودية ، فهو متبتل الى غير الله !!.

ومن آثر العرفان للعرفان فهو متبتل الى العرفان ، ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود ، وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف ، فقد خاض لجة الوصول .

وهذا مقام لا يشرحه المقال ، ولا يعبر عنه الخيال .

ومن أراد فليكن من الواصلين الى العين ، دون السامعين للاثر ، ولا يجد الانسان لهذا مثالا الا عند العشق الشديد اذا مرض البدن بسببه ، وانحبست القوى ، وعميت العينان ، وزالت الاغراض بالكلية ، وانقطعت النفس عما سوى المعشوق بالكلية ، فهناك يظهر الفرق بين التبتل الى المعشوق ، وبين التبتل الى رؤية المعشوق .

المسألة الثانية : الواجب أن يقال : وتبتل اليه تبتيلا . أو يقال : بتّل نفسك اليه تبتيلا ، لكنه تعالى لم يذكرهما . واختار هذه العبارة الدقيقة ، وهي أن المقصود بالذات هو التبتل ، فأما التبتيل فهو تصرف ، والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلا الى الله ، لأن المشتغل بغير الله لا يكون منقطعا الى الله ، الا أنه لا بد أولا من التبتيل حتى يحصل التبتل ، كما قال تعالى :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

فذكر التبتل أولا اشعارا بأنه المقصود بالذات ، وذكر التبتل ثانيا اشعارا بأنه لا بد منه ، ولكنه مقصود بالعرض » .

ولقد تعرض غير الرازي للاستفهام التالي : لماذا قالت الآية الكريمة: « وتبتل اليه تبتيلا » ولم يقل : وتبتل اليه تبتلاً ، مع أن مصدر « بتّل » ــ بتشديد التاء ــ هو : التبتل ، مثل التعلم والتفهم ؟.

وأجاب ابن قيم الجوزية في « مدارج السالكين » على هذا الاستفسار بهذه العبارة :

« مصدر « بتّل » « تبتلا » كالتعلم والتفهم ، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسر لطيف ، فان في هذا الفعل ايذانا بالتدرج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة ، فأدى بالفعل الدال على أحدهما ، وبالمصدر الدال على الآخر ، فكأنه قيل : بتّل نفسك الى الله تبتيلا ، وتبتل اليه تبتلا ، ففُهم المعنيان من الفعل ومصدره ، وهذا كثير في القرآن ، وهو من أحسن الاختصار والايجاز » .



وقد سُمت مريم الطاهرة العذراء بالبتول ، لانقطاعها عن الازواج، أو لتركها التزويج ، أو عن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ، ففاقت نساء الزمان شرفا وفضلا ، وقطعت منهن لأنها تفوقهن ، متميزة عليهن ، وهذا ما يذكرنا بقول الحق جل جلاله في سورة آل عمران : « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

وكذلك فاطمة الطاهرة بنت سيد المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنها وعن ذريتها ـ سُميت بالبتول ، وعلل الزبيدي ذلك بقوله في « تاج العروس » : لقبت بالبتول تشبيها بمريم في المنزلة عند الله تعالى ، أو لانقطاعها عن نساء زمانها ، وعن نساء الأمة فضلا ودينا ، وحسبا وعفافا ، وهي سيدة نساء العالمين ، وأم أولاده صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنها وعنهم .

ثم يضيف الزبيدي أن العلماء قد أفردوا في الاحاديث الواردة في فضلها كتابا مستقلا ، منهم شيخ الزبيدي العارف بالله تعالى السيد عبدالله ابن ابراهيم بن حسن الحسيني الطائفي ، فانه ألّف في ذلك رسالة قرأها

عليه الزبيدي بالطائف في سنة ١١٦٦ هـ . رضوان الله على الجميع .

* * *

وللصوفية في التبتل حديث طويل فيه تشقيق وتنميق . والهروي ــ من أعلامهم ــ يعد « التبتل » من منازل « اياك نعبد واياك نستعين » التي تتوالى فيها مدارج السالكين ، ويعرفه بقوله : « التبتل الانقطاع الى الله بالكلية » . ويستشهد بقوله تعالى : « له دعوة الحق » . ويذكر أن التبتل يفيد : التجريد المحض المفهوم من هذا النص الالهي .

ويعلق ابن القيم على هذا بقوله :

« ومراده بالتجريد المحض : التبتل عن ملاحظة الاعواض ، بحيث لا يكون المتبتل كالاجير الذي لا يخدم الا لاجل الاجرة ، فاذا اخذها انصرف عن المستأجر، بخلاف العبد، فانه يخدم بمقتضى عبوديته، لا للاجرة ، فهو لا ينصرف عن باب سيده الا اذا كان آبقا ، والابق قد خرج من شرف العبودية، ولم يحصل له اطلاق الحرية، فصار بذلك مركوسا عند سيده وعند عبيده ، وغاية شرف النفس دخولها تحت رق العبودية طوعا واختيارا . ومحبة ، لا كرها وقهرا ، كما قيل :

شرف النفوس دخولها في رقّهم والعبد يحوي الفخر بالتمليك

والذي حسَّن استشهاده بقوله « له دعوة الحق » في هذا الموضع : ارادة هذا المعنى ، وأنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته ، وان لم يوجب لداعيه بها ثوابا ، فانه يستحقها لذاته ، فهو أهل أن يُعبد وحده ، ويدعى وحده ، ويقصد وحده ويشكر ويحمد ، ويحب ويرجى ويخاف ، ويُتوكل عليه ، ويستعان به ، ويستجار به ، ويلجأ اليه ، ويصمد اليه ، فتكون الدعوة الالهية الحق له وحده .

ومن قام بقلبه هذا ــ معرفة وذوقا وحالا ــ صح له مقام التبتل

والتحريض المحض . وقد فسر السلف « دعوة الحق » بالتوحيد والاخلاص فيه والصدق ، ومرادهم هذا المعنى . فقال علي رضي الله عنه : « دعوة الحق التوحيد » ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : « شهادة أن لا اله الا الله » .

وقيل الدعاء بالاخلاص ، والدعاء الخالص لا يكون الا لله ، ودعوة الحق دعوة الالهية وحقوقها وتجريدها واخلاصها » .



والصوفية ـ كما ينقل صاحب مدارج السالكين عن الهروي ـ يقسمون التبتل بمعنى التجريد المحض الى ثلاثة أقسام ، أو ثلاث درجات :

الدرجة الاولى : تجريد الانقطاع عن الحظوظ والتطلع الى العالم بالخوف أو الرجاء ، لأن التبتل يجمع أمرين هما : الاتصال والانفصال ، والمراد بالانقطاع انقطاع قلب الانسان عن حظوظ النفس التي تزاحم مراد الرب منه ، فلا يلتفت قلبه الى غير الله ، خوفا منه أو رغبة فيه أو مبالاة به .

ويراد بالاتصال اتصال قلب المتبتل بالله ، واقباله عليه ، واقامة وجهه له بالحب والانابة والتوكل ، وذلك يوجد عن طريق الرضى بحكم الله وقسمته ، مع التسليم لله ، فلا يبقى في قلبه خوف من المخلوقين ، ولا مبالاة بهم في قليل أو كثير .

والدرجة الثانية : درجة الانقطاع عن النفس ، بمخالفة هواها ، وتنسم رَوح الانس بالله ، والتطلع الى فيض الله ورحمته ، وقد عبر عنها ابن القيم بهذه العبارة :

« الفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أن الاولى انقطاع عن الخلق ، وهذه انقطاع عن النفس ، وجعله بثلاثة أشياء :

أولها : مجانبة الهوى ومخالفته ونهي نفسه عنه ، لأن اتباعه يصد عن التبتل .

وثانيها : ــ وهو بعد مخالفة الهوى ــ تنسم رَوح الانس ، والرَّوح للروح كالروح للبدن ، فهو روحها وراحتها ، وانما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه ، فحينئذ تنسم روح الانس بالله ، ووجد رائحته ، اذ النفس لا بد لها من التعلق . فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الانس بالله ، وهبت عليها نسماته ، فريَّحتها وأحيتها .

وثالثها : شَيم برق الكشف ، وهو مطالعته واستشرافه ، والنظر اليه، ليعلم به مواقع الغيث ومساقط الرحمة .

وليس مراده بالكشف ههنا : الكشف الجزئي السفلي ، المشترك بين البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، كالكشف عن مخبآت الناس ومستورهم، وانما هو الكشف عن ثلاثة أشياء ، هن منتهى كشف الصادقين أرباب البصائر :

أحدها : الكشف عن منازل السير .

والثاني : الكشف عن عيوب النفس ، وآفات الاعمال ومفسداتها .

والثالث : الكشف عن معاني الاسماء والصفات ، وحقائق التوحيد والمعرفة .

وهذه الابواب الثلاثة هي مجامع علوم القوم ، وعليها يحومون ، وحولها يدندنون ، واليها يشمرون ، فمنهم من جُلّ كلامه في الآفات والقواطع ، ومنهم من جل كلامه في التوحيد والمعرفة ، وحقائق الاسماء والصفات .

والصادق الذكي يأخذ من كل منهم ما عنده من الحق ، فيستعين به

على مطلبه ، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر ، ويهدره به ، فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد الا له مقام معلوم » .

الدرجة الثالثة : درجة التجرد للسبق ، وتصحيح الاستقامة ، بالاعراض عما سوى الله ، ولزوم الاقبال عليه ، والاشتغال بمحابه ، وذلك بأن يشغله طلب الوصول عن كل شيء .



وقد عبر بعض الصوفية عن فضيلة التبتل بمعنى الانقطاع لله تعبيرات دقيقة عميقة ، منها قول أبي سليمان الداراني : « من أظهر الانقطاع لله ، فقد وجب عليه خلع ما دونه من رقبته » .

وقال أبو عبدالله الصبيحي : « لا يقطع عن الشيء ما هو مثله أو دونه ، وانما يقطعك عنه ما هو أتم منه وأعلى » .

وقال يحيى بن معاذ : « الفوت أشد من الموت ، لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق » .



وهناك تساؤل آخر : كيف يكون التبتل فضيلة من فضائل الاسلام، مع أنه جاء في مسند أحمد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام نهى عن التبتل ، وجاء في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث روي عن سعد بن أبي وقاص قوله : رد رسول الله صلى الله عليه وسلم التبتل على عثمان بن مظعون ولو أذن لاختصينا . وجاء في الحديث أيضا : « لا رهبانية ولا تبتل في الاسلام » ؟.

والجواب على هذا التساؤل أن التبتل له معنى آخر ، هو ترك الزواج

والزهد فيه ، وهو التبتل الذي نهى عنه الاسلام ، وكرهه الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو ما يعمد فيه أهلوه الى الانقطاع عن الزواج ، وعما يتبعه من الملاذ ، والتبتل الذي أراده عثمان بن مظعون هو تحريم النساء والطيب وكل ما يلتذ به ولهذا نزل في شأنه قول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » (١) .

والقرآن الكريم يقول :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٢) .

وذكر القرطبي أن التبتل المنهي عنه هو الانقطاع عن الناس والجماعات وسلوك سبيل الرهبانية . وذكر ابن حجر ان الذي يكره من التبتل هو الذي يفضي الى التنطع وتحريم ما أحل الله ، وليس التبتل من أصله مكروها .

اللهم هبنا نعمة الالتجاء اليك ، وفضيلة الاقبال عليك .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٧ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٣١ .

التطوع

تقول اللغة : ان التطوع في الاصل هو : تكلف الطاعة ، أو الاتيان بما في الطوع من العمل ، ويستعمل بمعنى النفل أو الزيادة على الواجب ، والطوع هو : الانقياد ، والطاعة مثله ، ولكن أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر به . والتطوع في الاصل تكلف ، وهو في المتعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل . وفي مادة التطوع معنى الاستجابة ، والسلاسة ، واللين .

وتطوع بالشيء : تبرع به وهو لا يلزمه ، وانما يقال في باب الخير والبر . وطوعت له نفسه كذا : انقادت له ، وسهلت عليه فعل الشيء . وتطوع بكذا : تحمله طوعا .

وتطلق كلمة المتطوعين في العادة على الذين يتبرعون بالجهاد والغزو من تلقاء أنفسهم ، دون أن يدعوهم الامام او السلطان لذلك بالتعيين ، وتكون نفقتهم من بيت المال ، وهذا معنى اصطلاحي .

ويقول القرطبي في تفسير التطوع : « هو ما يأتيه المؤمن من قبل نفسه » . ويعرف الرازي التطوع بقوله في تفسيره : « التطوع ما ترغب به من ذات نفسك مما لا يجب عليك » . وقد يطلق على التطوع لفظ التبرع، أو لفظ التنفل .

وفي نفوس الاخيار من العباد نزعة طيبة تدعوهم الى الاضافة الى الفرائض بما هو زائد عليها ، فهم لا يكتفون بما فرض الله عليهم ، أو بما ألزمهم به ، بل يضمون الى ذلك مزيدا يزيدون به فضلا من التقرب الى الله وابتغاء مرضاته ، لا على سبيل التزيد في الدين او الابتداع فيه ، أو الاضافة اليه ما ليس منه ، بل يتلمسون في ذلك معالم هداية جاءت في سنة الرسول وعمله ، تهييء لهم فرصا لهذه الزيادة المباركة المقصود بها التنافس في مجالات الخير والبر : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

والناس ثلاثة أقسام : اما غافل مهمل لا يؤدي فرضا ولا نفلا ، وهذا شر العباد . واما متوسط يؤدي الفروض والواجبات ويكتفي بها ويقتصر عليها ، وهذا جدير بالنجاة من العذاب ، واما أنه يؤدي الفرائض ، ويتبعها بالسنن والنوافل وهذا خير الناس وأحقهم بفضل الله سبحانه .

ويظهر التطوع بنوع خاص في الجهاد ، وفي بذل المال ، وفي خدمة الناس بلا أجر ودون مقابل .

ولو تأملنا روح القرآن الكريم لادركنا أن « التطوع » خلق من أخلاق القرآن ، وصفة من صفات أهل الايمان ، وفضيلة من الفضائل التي أرشد اليها هدى الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد جاءت مادة التطوع في أكثر من موطن من مواطن التنزيل الحكيم ، فالله تبارك وتعالى يقول في سورة البقرة :

« إِنَّ الصَّفا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ » (1) .

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٥٨ .

أي من تطوع بالحج أو العمرة فكررهما أو كرر احدهما فزاد على الفرض ، أي تحمله طوعا واختيارا ، وزيادة في الطاعة ، فان الله تعالى يثيبه ويجزيه خيرا ، لأنه شاكر يجزي على الاحسان احسانا ، وهو عليم بمن يستحق الجزاء وهو يثيب المحسنين ولا يضيع أجر العاملين .

ويقول القرآن الكريم في شأن فريضة الصوم في سورة البقرة :

« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١) .

أي من زاد في الصوم على الايام المعدودات ، وهي شهر رمضان الواجب صومه فهو خير له ، لأن فائدته وثوابه له ، والصيام ــ كما في تفسير المنار ــ خير عظيم ، لما فيه من رياضة الجسد والنفس ، وتربية العزيمة والارادة ، وتغذية الايمان بالتقوى ، وتقويته بمراقبة الله تعالى .

ولقد قال أبو امامة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ، مرني بأمر آخذه عنك ». فقال النبي : « عليك بالصوم فانه لا مثل له » .

ويرى بعض المفسرين أن المعنى : من أراد الاطعام مع قضاء الفائت من الصوم ، أو من زاد على اطعام المُدّ لمسكين واحد ، بأن أطعم أكثر من مُدّ ، أو أكثر من مسكين فذلك خير له .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٤ .

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١) .

« المطوعين » : المتطوعين ، والتطوع في العبادة ما زاد على الفريضة ، والذين يلمزون : هم الذين يعيبون المتطوعين بالصدقات ، وقيل الذين يعيبون المتطوعين بالجهاد ، وهم الذين نفروا للجهاد بأموالهم وأنفسهم طاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير ان يكون واحد منهم مرغما على ذلك ، ومن غير أن يكون الجهاد مطلوبا منهم من ولي الامر ، والقول الاول أرجح وأوضح .

وقد جاء في سبب النزول للآية ما رواه البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا فاني أريد أن أبعث بعثا » .

فجاء عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، عندي أربعة آلاف : ألفين أقرضهما ربي وألفين أمسكهما لعيالي .

فقال عليه الصلاة والسلام : « بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت » .

وفي رواية الطبري أنه لما حث الرسول على الصدقة في غزوة تبوك جاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها ، فقال النبي صلوات الله وسلامه عليه : «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» ، وتصدق يومئذ عاصم

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٩ .

ابن عدي بمائة وَسق من تمر ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر . ورواية الثمانية آلاف درهم أصح الروايات وقد قال المنافقون عندئذ : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم الا رياء ، وأما أبو عقيل فانما جاء بصاعه ليذكِّر بنفسه فنزلت الآية .

* * *

وقد جاء ذكر « التطوع » كثيرا في السنة النبوية المطهرة حيث ذكرت السنة التطوع بصلاة النفل ، والتطوع بالصوم ، والتطوع بالهدي ، والتطوع بحراسة المسلمين ، والتطوع بطعام المسكين .

وقد روى البخاري في صحيحه عن طلحة بن عبيد الله : أن أعرابيا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس فقال : يا رسول الله ، أخبرني ماذا فرض الله علي من الصلاة .

فقال : الصلوات الخمس الا أن تطوَّع شيئا .

قال : أخبرني بما فرض الله علي من الصيام .

قال : شهر رمضان الا أن تطوع شيئا .

قال : أخبرني بما فرض الله علي من الزكاة .

قال : فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرائع الاسلام .

قال : والذي أكرمك لا أتطوع شيئا ، ولا أنقص مما فرض الله علي شيئا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح ان صدق ، أو دخل الجنة ان صدق » .

ومن هذا الهدي النبوي الرائع ندرك أن الاساس في فضيلة التطوع هو الرغبة القائمة على حب الازدياد من الخير ، فلقد يؤدي الانسان

المطلوب منه أو الواجب عليه كأحسن ما يكون الاداء ، ثم لا تكتفي نفسه الخيرة بذلك بل هو يطمح الى ما هو أوسع من المطلوب منه أو المفـروض عليـه .

وهذه الفضيلة لا تتحقق على وضعها الكريم الاصيل الا عند الاخيار من العباد يرون المتعة كل المتعة في أن يضحوا من أجل غيرهم ، وأن يبذلوا في سبيل سواهم لا تأثرا بغرض ولا خضوعا لمرض وانما هو الخير وحبه من أجل جماله وما من مجتمع تسوده فضيلة التطوع الا ويبلغ قمة الرفعة والسؤدد ، ولو نظرنا الى خوالد الاعمال الكبيرة في حياة الشعوب والامم لوجدناها قد نبتت في الارض الطيبة القائمة على أعمال التطوع والتضحية:

« وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [1] .

جمَّلني الله واياك بفضيلة التطوع ، واذاقنا حلاوة البذل من اجل الغير ابتغاء وجه الله عز وجل .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٩ .

الاستبشار

تقول اللغة : بشّرته أخبرته بخبر سار بسط بشرة وجهه ، وذلك أن النفس اذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر ، واستبشر أي وجد ما يبشره من الفرح .

والبشير هو المبشر . وتباشير الوجه ما يبدو من سروره ، وتباشير الصبح ما يبدو من أوائله وتباشير النخل ما يبدو من رطبه . والبشر طلاقة الوجه وبشاشته ، والبشارة الخبر المفرح الذي تظهر معه طلاقة الانسان وفرحه .

والتبشير يكون بالخير في العادة ، وقد يكون بالشر اذا كان مقيدا به. يقال بشره تبشيرا اذا أخبره بخبر يظهر أثره على بشرة وجهه . ويقول الامام القرطبي : التبشير هو الاخبار بما يظهر أثره على البشرة ــ وهي ظاهر الجلد ــ لتغيرها بأول خبر يرد على الانسان ، ثم الغالب أن يستعمل في السرور مقيدا بالخير المبشر به ؛ وغير مقيد ايضا . ولا يستعمل في الغم والشر الا مقيدا منصوصا على الشر المبشر به كقول الله تعالى :

« فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ومن هنا سميت البشرى بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه ؛

ولذلك كانت نوعين · بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة ، وبشرى محزنة تؤثر فيه عبوسا ، ولكن اذا أطلقت كانت للسرور ، واذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به .

وروح الاستبشار خلق من أخلاق القرآن الكريم وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم وجزء من هدي النبي عليه الصلاة والتسليم . والمؤمن من شأنه أن يكون مبشرا بالخير ، ومبشرا بدعوة الحق ، ومستبشرا بين الناس ، فهو يحاول ما استطاع أن يكون طلق الوجه منبسط الاسارير مذكرا بنواحي التفاؤل والبشر والأمل في هذه الحياة .

ويرى ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » أن هناك فرقا بين الفرح والاستبشار ، هو أن الفرح بالمحبوب يكون بعد حصوله ، والاستبشار يكون به قبل حصوله ، اذا كان الانسان على ثقة من حصوله . ولذلك يقول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران عن الشهداء :

« فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، ويَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » (١) .

ويرى الامام الهروي أن السرور اسم لاستبشار جامع ، وهو أصفى من الفرح ، لأن الافراح ربما شابتها الاحزان ، وأما الاستبشار فهو كالبشرى ، والبشارة أول خبر صادق سار ، والبشرى يراد بها أمران ، أحدهما بشارة المخبر (بكسر الباء) . والثاني سرور المخبر (بفتح الباء) . وفي الحديث عن ابي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان البشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له .

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٠ .

« لَهُمُ البُشْرى في الحياةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ »(1) .

بشرى الحياة الدنيا هي عند الموت ، تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله . وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن ، اذا خرجت يعرجون بها الى الله تزف كما تزف العروس تبشر برضوان الله عز وجل .

وقد جاء في « تفسير المنار » أن الاستبشار لا ينافي الاحساس بالالم ، ولا ينافي الصبر والتثبت ما يكون من حزن الانسان عند نزول المصيبة ، بل ذلك من الرحمة ورقة القلب ، ولو فقد الانسان هذه الرحمة لكان قاسيا ، لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ، وانما الجزع المذموم هو الذي يحمل صاحبه على ترك الاعمال المشروعة لاجل المصيبة ، والاخذ بعادات وأعمال مذمومة ضارة ينهى عنها الشرع ، ويستقبحها العقل ، كما نشاهد من جماهير الناس في المصائب والنوائب .

وقد ورد في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم بكى عندما حضر ولده ابراهيم عليه السلام الموت ، وقيل له أليس قد نهيتنا عن ذلك ؟ فأخبر انها الرحمة ، وقال : ان العين تدمع ، والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضي ربنا وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » .

ومن سمو مكانة « الاستبشار » أن الله تبارك وتعالى يخبرنا بأنه الذي يبشر من يستحقون البشرى ليكونوا من أهل الاستبشار ، فيقول سبحانه في سورة التوبة :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الفائِزُونَ ،

---

(1) سورة يونس ، الآية ٦٤ .

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ » [1] .

وتبشير الله يكون عن طريق كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل ، وعلى لسان الملائكة عند الموت . وبرحمة منه : أي برحمة عظيمة خاصة من لدنه سبحانه ، والرضوان : نوع من الرضا التام الكامل الذي لا يشوبه سوء ولا يعقبه سخط ، وكذلك يقول الله تعالى في سورة آل عمران :

« وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ الاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ » [2] .

جعل الله تعالى وعده للمؤمنين بالنصر تطمئن به قلوبهم ، وكان المؤمنون يوم بدر في قلة وذلة من الضعف والحاجة ، فلم يكن لهم اعتماد الا على الله تعالى ، وما وهبهم من قوة في أبدانهم ونفوسهم ، وما أمرهم به من الثبات والذكر ، اذ قال : « اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » فبذلوا كل قواهم وامتثلوا أمره ، واستبشروا بوعده ، ولم يكن في نفوسهم استشراف الى شيء غير نصر الله واقامة دينه والذود عن نبيه عليه الصلاة والسلام ، لا في أول القتال ولا في أثنائه ، فكانت أرواحهم بهذا الايمان وهذا الصفاء قد علت وارتفعت وارتقت ، حتى استعدت لقبول الالهام من أرواح الملائكة ، والتقوى بنوع ما من الاتصال بها .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٠ و٢١ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٢٦ .

« وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

أي يسرون بلحوق من لحقهم من اخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله تعالى الذي اعطاهم .

وقال السدي : يؤتى الشهيد بكتاب فيه : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم اذا قدم .

وقال سعيد بن جبير : لما دخلوا الجنة ، ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت اخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فاذا شهدوا القتال باشروه بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصابنا من الخير ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم وما هم فيه من الكرامة وأخبرهم ربهم أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه ، فاستبشروا بذلك فذلك قوله : « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ثم يقول تعالى : « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » فهم يطلبون البشرى بالذين لم يلحقوا بهم من اخوانهم ، أي يتوقعون أن يبشرهم مبشر في وقت قريب بقدوم هؤلاء الاخوان عليهم شهداء مقتولين كما قتلوا فيكون لهم الفوز الكبير والاجر العظيم .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ ، ١٧٠ .

ويقول تعالى في سورة البقرة :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[1] .

يعلم الله عباده في هذه الآية الكريمة ان المؤمنين الموفّقين لرضا الله ورضوانه هم الذين يصبرون على المتاعب ، ويتأدبون بمقاومة الشدائد ، ويتطلعون الى الانوار من خلال الظلمات ، ويغلّبون جانب الرجاء على جانب اليأس . وهؤلاء يبشرهم خالقهم بأن ايمانهم بربهم هو الذي يربي فيهم الثقة والصبر ، ويولّد فيهم الامل ، ويبلغهم مواطن الفوز والظفر ، ويجعلهم أهلا لحسن العاقبة في الامور كلها ، ولذلك هم أهل للبشرى الواسعة الشاملة التي لم تحدد بنوع أو جهة .

وقد وصفهم بأن فضيلة الاستبشار تدفعهم الى الرضا والتسليم والخضوع المطلق لله في سائر الاحوال . ولذلك وصفهم بقوله : «الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » . ولذلك كان الجزاء عظيما : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الانفال :

« وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ . وَما النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ »[2] .

وقد سبق لنا الاشارة الى هذه الآية الكريمة ، وفيها يقول ابن جرير: وما جعل الله وعده اياكم ما وعدكم به من امداده اياكم بالملائكة الذين

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٥ .
(٢) سورة الانفال ، الآية ١٠ .

ذكر عددهم الا بشرى لكم يبشركم بها ، وكي تطمئن قلوبكم بوعده الذي وعدكم ، فتسكن اليه ولا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم ، وما ظفركم ان ظفرتم بعدوكم الا بعون الله ، لا من قبل مدد الملائكة .

ويرى صاحب « تفسير المنار » أن التقدير : وما جعل الله ذلك القول الذي قاله لكم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو : « ألن يكفيكم أن يمدكم » الا بشرى يفرخ بها روعكم ، وتنبسط بها أسارير وجهكم ، وطمأنينة لقلوبكم .

ويقول الله تعالى في سورة عبس عن أهل النعيم :

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ » (١) .

وفي هذا النص الكريم يقول الامام محمد عبده : الوجوه المسفرة المضيئة المتهللة الضاحكة المستبشرة التي يظهر عليها الفرح والسرور ، لما تجد من برد اليقين ، بأنها ستوفى ما وُعدت به جزاء ايمانها ، وما قدمت من صالح أعمال وشكر آلاء ونعم . تلك وجوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وجاء في كتاب « ظلال القرآن » :

فهذه وجوه مستنيرة متهللة ، ضاحكة مستبشرة ، راجية في ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه بها ، فهي تنجو من هول الصاخة المذهل ، تتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر ، أو هي قد عرفت مصيرها . وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل .

« وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَئِكَ

---

(١) سورة عبس ، الآية ٣٨ ، ٣٩ .

هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ » [1] :

فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها الذل والانقباض، وقد عرفت ما قدمت ، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء ... أولئك هم الكفرة الفجرة ، الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته ، والذين خرجوا عن حدوده ، وانتهكوا حرماته .

ويقول الله تعالى في سورة يونس :

« أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ ، لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ » .

ويعلق صاحب « ظلال القرآن » على هذا النص بهذه الكلمات :

«وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون، والله معهم هكذا في كل شأن، وفي كل عمل ، وفي كل حركة أو سكون ، وهم أولياء الله ، المؤمنون به ــ والايمان اعتقاد يصدقه العمل ــ المراقبون له في السر والعلن ، بمدلول التقوى ؟.

كيف يخافون وكيف يحزنون وهم على اتصال بالله ، لأنهم أولياؤه؟ وعلام يحزنون ومم يخافون ، والبشرى لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ انه الوعد الحق الذي لا يتبدل ، « لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .

ان أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الايمان، المتقون حق التقوى . والايمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه . هكذا يجب أن نفهم

(1) سورة عبس ، الآية ٤٠ ــ ٤٢ .

معنى الولاية لله ، لا كما يفهمه العوام ، من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالاولياء » .

* * *

وحديث الاستبشار والبشرى في السنة المطهرة حديث له روعته وبهجته ، وحسبنا أولا أن تتذكر أن مجيء الرسول نفسه كان بشرى من الله . واختار الله لتبليغ البشرى كلمته وروحه ، وعبده ونبيه ورسوله عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . يقول على لسان عيسى في سورة الصف :

« وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » [1] .

ويقول رسولنا صلى الله عليه وسلم : « أنا بشارة أخي عيسى » .

وعيسى نفسه كان مجيئه أيضا بشارة ، يقول الله عز وجل في سورة آل عمران :

« إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » [2] .

ومن وظيفة الرسول الاساسية أنه « مبشر » يقول القرآن في سورة الاحزاب :

« يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِراجاً مُنِيراً ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) سورة الصف ، الآية ٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٤٥ .

بِأَنَّ لَهُمْ من اللهِ فَضْلاً كَبِيراً » [1] .

بل يقول القرآن الكريم في شأن الرسل جميعا في سورة الانعام :

« وَمَا نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » [2] .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان مثلا أعلى في الاستبشار والتبشير والسير في الحياة بروح التفاؤل والبشرى والدعوة الى التيمن وانتظار الخير ، فيروي البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وفي المسند : «أبشروا وبشروا من وراءكم».

ونعرف من سيرة الرسول العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك أناس غيرهم بشرهم رسول الله بالجنة أيضا . وفي الحديث : « بشّر المشائين في الظلم الى المساجد بالنور التام » . ولقد أبلغ جبريل النبي عليه الصلاة والسلام أن يبشر زوجته السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ببيت لها في الجنة من قصب . وفي مسند أحمد : « بشر هذه الامة بالسناء والرفعة » ، وقد روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه : « وأنا مبشرهم اذا أيسوا » .

ومما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب روح الاستبشار ما رواه ابن ماجة من قوله : « اللهم اجعلني من الذين اذا احسنوا استبشروا » .

وأرشد الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى روح الاستبشار حين قال ــ كما روى مسلم ــ : « فان رأى رؤيا حسنة فليبشر » . وعلم

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٤٥ ــ ٤٧ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ٤٨ .

النبي المسلم اذا رأى رؤيا حسنة سارة تحدث بها ، واذا رأى رؤيا سيئة طواها وأعرض عنها . بل نصح الرسول المسلم اذا رأى هذه الرؤيا السيئة أن ينقلب وهو في نومه على الجانب الآخر ، وأن يتفل طردا لذكراها واعراضا عن التأثر بها ، وكأن الرسول يريد أن يقرّب المسلم دائما من روح الاستبشار وأن يباعد دائما بينه وبين التجهم والتطير .

ولقد كان الاستبشار والتبشير عادة الصحابة فقد روى القرطبي قال:

قال أبو سنان : دفنت ابني سنانا ، وأبو طلحة الخولاني على شفير القبر ، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأنشطني وقال : ألا أبشرك يا أبا سنان ؟ حدثني الضحاك عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اذا مات ولد العبد قال الله لملائكته أقبضتم ولد عبدي ؟

فيقولون : نعم .

فيقول : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟

فيقولون : نعم .

فيقول : فماذا قال عبدي ؟

فيقولون : حمدك واسترجع .

فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد .

وللامام ابن تيمية عبارة بليغة تدل على عمق الاستبشار في نفسه ، وقوة تحليه بهذه الفضيلة في أيام البأس والشدة ، فهو يقول : « ان سجني خلوة ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة » وهكذا نراه يوجد من الظلمات أنوارا ومن المتاعب أزهارا وهذا كله من روح الاستبشار التي سيطرت على نفسه ومسيرته في حياته .



وللصوفية طريقتهم الخاصة في الكلام عن البشرى والاستبشار . فعندما يتكلمون مثلا عن قول الله تعالى في سورة البقرة :

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ »(1) .

يرى القشيري في « لطائف الاشارات » أن هذه البشارة المذكورة في الآية تتضمن نعما مؤجلة لعموم المؤمنين ، ونعما معجلة للخواص .

فتلك ــ أي المؤجلة ــ هي جنان المثوبة ، وهذه ــ أي المعجلة ــ جنانُ القربة ، وتلك رياض النزهة ، وهذه رياض الزلفة ، بل تلك حدائق الافضال ، وهذه حقائق الوصال ، وتلك رفع الدرجات ، وهذه روح المناجاة ، وتلك قضية جوده ، وهذه الاشتغال بوجوده ، وتلك راحة الابشار ، وهذه نزهة الاسرار ، وتلك لطف العطاء للظواهر ، وهذه كشف الغطاء عن السرائر ، وتلك لطف نواله وأفضاله ، وهذه كشف جماله وجلاله .

هكذا تحدث القشيري الصوفي على طريقته .

وتعجبني أبيات تفيض بالاستبشار والرضا والتفتح للحياة ، للشاعر المرحوم محمد مصطفى حمام من قصيدة بعنوان : « علمتني الحياة » كنتُ قد اقترحت عليه موضوعها ، وفي هذه الابيات يقول :

علمتني الحياة أن أتلقى ... كلَّ ألوانها رضا وقبولا
ورأيت الرضا يخفف أثقا ... لي، ويلقي على المآسي سدولا
والذي ألهم الرضا لا تراه ... أبد الدهر حاسدا أو عذولا

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٢٥ .

أنا راض بكل ما كتب اللـه ... ومُزج اليـه حمـدا جزيلا
أنا راض بكل صنف من النا ... س : لئيما ألفيته أو نبيلا
لست أخشى من اللئيم أذاة ... لا ولن أسأل النبيـل فتيلا
فسح الله في فؤادي، فلا أر ... ضى من الحب والوداد بديلا
في فؤادي لكل ضيف مكان ... فكن الضيف: مؤنسا أو ثقيلا
ضلَّ من يحسب الرضا عن هوان ... أو يراه على النفـاق دليـلا
فالرضا نعمة من الله لم يسـ ... ـعد بها في العباد الا القليـلا
والرضا آية البراءة والايمـ ... ـان بالله ناصـرا ووكيلا

عمر الله قلبي وقلبك بنعمة الرضا ، وجمَّلنا بفضيلـة الاستبشار ، وجعلنا من أهل البشرى ، انه أكرم مستعان .

ذكر الله

تقول لغة العرب : ذكر الانسان النعمة أي استحضرها وقام بواجبها. وذكر المؤمن ربه تعالى استحضره في قلبه مع تدبر . والذكر استحضار الشيء في القلب ، أو التكلم عنه بالقول ، فهناك ذكر بالقلب وذكر باللسان ، وقد يكون الذكر عن نسيان ، وقد يكون عن ادامة الحفظ . والذكر أيضا هو القرآن ، وقد يستعمل لفظ الذكر بمعنى الشرف كقوله تعالى :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » .

والذكرى كثرة الذكر قال تعالى :

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

« وذكر الله » خلق من أخلاق القرآن وفضيلة من فضائل الاسلام ودعامة من هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد توسع الامام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين في الحديث عن الذكر ومكانته عند أطباء القلوب والارواح ، وأشاد بمنزلته فقال : « وهي منزلة القوم الكبرى ، التي منها يتزودون . وفيها يتجرون . واليها دائما يترددون » .

و « الذكر » منشور الولاية ، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم ، الذي متى فارقها صارت الاجساد لها قبورا ،

وعمارة ديارهم ، التي اذا تعطلت عنه صارت بورا . وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق ، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق . ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب ، والسبب الواصل ، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب .

واذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر احيانا فننتكس

به يستدفعون الآفات ، ويستكشفون الكربات . وتهون عليهم به المصيبات . اذا أظلهم البلاء ، فاليه ملجؤهم . واذا نزلت بهم النوازل ، فاليه مفزعهم . فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون ، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون . يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا . ويوصل الذاكر الى المذكور بل يدع الذاكر مذكورا .

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة . و « الذكر » عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال : قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم . فكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها . فكذلك القلوب بور خراب . وهو عمارتها ، وأساسها .

وهو جلاء القلوب وصقالها . ودواؤها اذا غشيها اعتلالها . وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا : ازداد المذكور محبة الى لقائه واشتياقا . واذا واطأ في ذكره قلبه للسانه : نسي في جنب ذكره كل شيء . وحفظ الله عليه كل شيء . وكان له عوضا من كل شيء .

به يزول الوقر عن الاسماع ، والبكم عن الالسن ، وتنقشع الظلمة عن الابصار .

زين الله به ألسنة الذاكرين . كما زين بالنور أبصار الناظرين . فاللسان الغافل : كالعين العمياء ، والاذن الصماء ، واليد الشلاء .

وهو باب الله الاعظم المفتوح بينه وبين عبده ، مـا لم يغلقـه العبد بغفلتـه .

ومع توسع الامام ابن القيم في تصوير مكانة الذكر أضاف أن هناك مائة فائدة في الذكر ذكرها في كتاب «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب»

والذكر من أخلاق الانبياء ، وهذا شرف له ففي سورة طه . جاء على لسان موسى عليه السلام :

« كَي نُسَبِّحَكَ كَثيراً ونَذْكُرَكَ كَثِيراً » (١) .

وفي سورة المائدة جاء قول الله تعالى :

« إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ » (٢) .

وفي سورة آل عمران قال الله لزكريا :

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثيراً ، وَسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإِبْكارِ » (٣) .

وفي سورة طه قال الله يخاطب موسى عليه السلام :

« إِنَّنِي أَنا اللهُ لا إِلٰهَ إِلَّا أَنا فاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي » (٤) .

---

(١) سورة طه ، الآية ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٠ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ٤١ .
(٤) سورة طه ، الآية ١٤ .

وفي السورة ذاتها قال يخاطب موسى وهارون :

« اذْهَبْ أَنْتَ وأَخُوكَ بآياتي وَلا تَنِيا في ذِكرِي » [1] .

والذكر الصادق له أثره العميق في نفس الذاكر ولذلك قال الله تعالى في سورة الانفال :

« إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيماناً ، وَعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » [2] .

وقال في سورة الحج :

« الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، والصَّابرينَ على ما أَصَابَهُمْ وَالمُقِيمي الصَّلاةِ ، وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ » [3] .

وقال في سورة الرعد :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ » [4] .

---

(١) سورة طه ، الآية ٤٢ .
(٢) سورة الانفال ، الآية ٢ .
(٣) سورة الحج ، الآية ٣٥ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .

وحول هذه الآية يقول القشيري : « قوم اطمأنت قلوبهم بذكرهم الله ، وفي الذكر وجدوا سلوتهم ، وبالذكر وصلوا الى صفوتهم . وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله فذكرهم الله ـ سبحانه ـ بلطفه ، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم .

ويقال اذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم ، واستبشرت أرواحهم ، واستأنست أسرارهم ، قال تعالى : « آلا بذكر الله تطمئن القلوب » لما نالت بذكره من الحياة ، واذا كان العبد لا يطمئن قلبه بذكر الله ، فذلك لخلل في قلبه ، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة .

ويرشدنا القرآن الكريم الى أن ذكر الله له مواطن وأماكن يحلو فيها ، ويحسن . وان كان ذكر الله يكون في كل مكان وأوان . فالله تعالى يقول في سورة النور : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال » ، ويقول في سورة الحج :

« وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثيراً » (١) .

ويرشدنا القرآن كذلك الى أن قلة الذكر من شأن المنافقين ، فيقول في سورة النساء :

« إِنَّ المُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وإِذا قامُوا إِلى الصَّلاةِ قامُوا كُسَالى يُراءُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً » (٢) .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٠ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٢ .

كما ان الصد عن ذكر الله من عمل الشيطان . فيقـول القـرآن في سورة المائدة :

« إِنَّما يُرِيدُ الشيْطانُ أَنْ يُوقعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ في الخَمْرِ والْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ »[1] .

وفي سورة يوسف :

« فأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ »[2] .

وفي سورة المجادلة :

« اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ »[3] .

وهدد الله تعالى الذين يغفلون عن ذكره فقال في سورة طه :

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإِنَّ لهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمَى » .

وقال في سورة الكهف :

« وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً »[4] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٩١ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٤٢ .
(٣) سورة المجادلة ، الآية ١٩ .
(٤) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

وقال في سورة الجن :

« وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يُسْلِكْهُ عَذاباً صَعَداً »[1] .

وقد وردت في القرآن آيات تشير الى مواطن ينبغي فيها ذكر اللـه تعالى أو يلزم ، ففي سورة البقرة :

« فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفات فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ ، واذْكُرُوهُ كما هَدَاكُمْ وإنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِينَ »[2] .

أي فاذا اندفعتم في الحج من فوق عرفات فاذكروا ربكم عند المشعر الحرام وهو المزدلفة ، ثم كرر الامر للتأكيد فقال واذكروه كما هداكم . وقيل ان الامر الثاني : أمر بالذكر على وجه الاخلاص ، أو المراد به تعديد النعم وأمر بشكرها . والمعنى اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه . وفي السورة نفسها أيضا جاء قوله تعالى : « واذكروا الله في أيام معدودات » وهي الايـام الثلاثة بعد يوم النحر وهي أيام منى ، ويراد بالذكر هنا التكبير وجاء في سورة الحج :

« لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ في أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ »[3] .

---

(١) سورة الجن ، الآية ١٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٨ .
(٣) سورة الحج ، الآية ٢٨ .

والايام المعلومات هي عشر ذي الحجة . وجاء في سورة البقرة :

« فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً »[1] .

أي فاذا أديتم شعائر الحج فاذكروا الله واثنوا عليه بآلائه عندكم . اذكروا الله كثيرا كذكر الاطفال آباءهم وأمهاتهم . أو استغيثوا به والجأوا اليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم مع آبائكم . أو اذكروا الله وعظموه ودافعوا عن دينه كما تدافعون عن آبائكم أو أشد .

يقول القشيري في ذلك :

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » قيام له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر . ويقال كما ان الاغيار يفتخرون بآبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم فليكن افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال ان كان لآبائكم عليكم حق التربية فحقنا عليكم أوجب ، وأفضالنا عليكم أتم .

ويقال ان كان لاسلافكم مآثر ومناقب ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لآبائكم من حسن الحال .

ويقال انك لا تمل ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك ، فاستدم ذكرنا ، ولا تعترضنك ملالة أو سآمة أو نسيان .

ويقال ان طعن في نسبك طاعن لم ترض ، فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبدع فذب عنا .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٠ .

ويقال الأب يذكر بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية .

وقال : « كذكركم آباءكم » ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يذكر احتراما والام تذكر شفقة عليها والله يرحم ولا يرحم .

« أو أشد ذكرا » لأن الحق أحق ، ولأنك قد تستوحش كثيرا عن أبيك ، والحق سبحانه منزه عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضي الواجب حين ان كان ذرة » .

وحينما تعرض صاحب « لطائف الاشارات » لقوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » علق عليها بهذه العبارة : « الوجل شدة الخوف ، ومعناه هاهنا أن يخرجهم الوجل عن أوطان الغفلة ، ويزعجهم عن مساكن الغيبة ، فاذا انفصلوا عن أودية التفرقة ، وفاءوا الى مشاهد الذكر ، نالوا السكون الى الله عز وجل ، فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقا على تصديق ، وتحقيقا على تحقيق ، فاذا طالعوا جلال قدره، وأيقنوا قصورهم عن ادراكه ، توكلوا عليه في امدادهم بالرعاية في نهايتهم ، كما استخلصهم بالعناية في بدايتهم .

ويقال : سنة الحق سبحانه مع أهل العرفان أن يرددهم بين كشف جلال ولطف جمال ، فاذا كاشفهم بجلاله وجلت قلوبهم ، واذا لاطفهم بجماله سكنت قلوبهم ، قال الله تعالى : « ولتطمئن قلوبهم بذكر الله » .

ويقال : « وجلت قلوبهم بخوف فراقه ، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروح وصاله ، وذكر الفراق يغنيهم ، وذكر الوصال يصحيهم ويحييهم » .

ولا تنس أن هذا كلام يسير على طريقة الصوفية الخاصة بهم .

وفي سورة الاعلى يقول الحق تبارك وتعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

ويقول الامام محمد عبده ان قوله : « وذكر اسم ربه فصلى » معناه : لاحظ بسره ما يجب أن يعرفه عن ربه ، فيحضر في قلبه صفاتـه العليـة فيخشع لذلك ، فالصلاة هنا بمعنى الخشوع واللجوء الى الله ، فهو كقوله سبحانه : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » .

وقد يكون مع الخشوع صلاة من الصلوات المكتوبة أو جميعها ، وانما عبر عن الخشوع بالصلاة ، لأنه لبها والمقصود منها ، والصلاة دون خشوع شبح بلا روح .

ويطالب القرآن بذكر الله عند الامن بعد الخوف ، فيقول في سورة البقرة : « فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » أي اذا زال عنكم الخوف ، وتحقق لكم الامان بفضل الله فاشكروه على هذه النعمـة .

والله جل جلاله يطالب بالذكر في كل الاوضاع والاحوال . أليس هو القائل في سورة آل عمران :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموات وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآيات لأُولي الأَلْبابِ : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفكَّرُونَ في خَلْقِ السَّموات وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحَانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ » [1] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ ــ ١٩١ .

يقول القشيري الصوفي الآية الكريمة على طريقته : « استغرق الذكر جميع أوقاتهم ، فان قاموا فبذكره ، وان قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر ، فيقومون بحق ذكره ، ويقعدون عن اخلاف أمره ، ويقومون بصفاء الاحوال ، ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها .

ويذكرون الله قياما على بساط الخدمة ، ثم يقعدون عن بساط القربة .

ومن لم يسلم في بداية أمره عن التقصير ، لم يسلم له قعود في نهايته بوصف الحضور .

والذكر طريق الحق سبحانه ، فما سلك المريدون طريقا أصح وأوضح من طريق الذكر .

ولو لم يكن فيه سوى قوله (أنا جليس من ذكرني) لكان ذلك كافيا .

ثم يضيف بعد قليل :

« والذكر عنوان الولاية ، وبيان الوصلة ، وتحقيق الارادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شيء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة الى الذكر ، ومنشأة عن الذكر » .

ومن هذا القبيل قول الله سبحانه في سورة آل عمران :

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبكارِ » (١) .

أي اذكره بقلبك ولسانك في جميع أوقاتك .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤١ .

ويقول الله تعالى في سورة العنكبوت :

« إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ »[1] .

وورد في معنى هذا أقوال أربعة :

الاول : أن ذكر الله أكبر من كل شيء ، فهو أفضل الطاعات .

الثاني : اذا ذكرتموه ذكركم ، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له .

الثالث : ذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة أو منكر ، فاذا تم الذكر محق كل الخطايا .

الرابع : ما تضمنته الصلاة من ذكر الله أكبر وأعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وقد جاء « الذكر » في القرآن المجيد على عشرة أوجه :

الاول : الامر به مطلقا ومقيدا .

الثاني : النهي عن ضده ، وهو الغفلة والنسيان .

الثالث : تعليق الفلاح باستدامته وكثرته .

الرابع : الثناء على أهله ، والاخبار بما أعده الله لهم من الجنة والمغفرة .

الخامس: الاخبار عن خسران من لها عنه بغيره .

السادس: أن الله سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له .

السابع : الاخبار بأنه أكبر من كل شيء .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥ .

الثامن : أن الله تعالى جعله خاتمة الاعمال الصالحة ، كما كان مفتاحها .

التاسع : الاخبار عن أهله بأنهم هم أهـل الانتفـاع بآياته ، وأنهم أولو الالباب دون غيرهم .

العاشر : جعله الله قرين جميع الاعمال الصالحة ، وهي بدونه كالجسد بلا روح .

وقد ذكر القرآن الحكيم ختم الصيام بالذكر فقال :

« وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » [1] .

وختم به الصلاة فقال :

« فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فاذْكُرُوا اللهَ قِياماً وقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ » [2] .

وختم به الجمعة فقال :

« فإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا في الأَرضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » [3] .

وبالذكر ــ كما يقول الصوفية ــ يصرع العبد الشيطان ، كما يصرع

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٣ .
(٣) سورة الجمعة ، الآية ١٠ .

الشيطان أهل الغفلة والنسيان .

وقال بعض السلف : اذا تسكن الـذكر من القلب ، فان دنـا منـه الشيطان صرعه كما يصرع الانسان اذا دنا منه ، فيجتمع عليه الشياطين ، فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسه الانسي .

ويقول الحسن البصري : تفقدوا الحـلاوة في ثلاثـة أشـياء : في الصلاة ، وفي الذكر ، وفي قراءة القرآن ، فان وجدتم ، والا فاعلموا أن الباب مغلق .

ولقد سأل السلمي الشيخ الدقاق : الذكر أتم أم الفكر ؟.

فقال الدقاق : ما الذي يقع لك فيه ؟.

فأجاب السلمي : عندي الذكر أتم من الفكر ، لأن الحق سبحانـه يوصف بالذكر ، ولا يوصف بالفكر ، وما وُصف به الحق سبحانه أتـم مما اختص به الخلق .

فاستحسن الدقاق جواب السلمي .

وحسب الذكر شرفا ــ كما نفهم من السنة المطهـرة ــ أن يخبرنـا الرسول بأن السابقين هم الذاكرون ، وأن خير الاعمال وأزكاها عند الله الذكر ، وأن الله تعالى يباهي ملائكته بالذاكرين ، وأن مجالس الذكر هي رياض الجنة ، وأن مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت، وان التنعم الحقيقي انما يكون بذكر الله جل جلاله .

اللهم اجعلنـا من الذاكرين لك ، الشاكرين لأنعمـك ، الفـائزين برضوانك .

ابتغاء وجه الله

تقول لغة العرب : ابتغى الانسان الشيء طلبه . والابتغاء مخصوص بالاجتهـــاد في طلب الشيء ، فمتى كان الشيء محمودا فالابتغـــاء فيـــه محمود ، ووجه الله ذات الله سبحانه وتعالى ، وقيل ان وجه الله قبلته التي يتوجه اليها المؤمن في الصلاة ، والقرآن المجيد يقول :

« وَلِلّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فأَيْنَما تُوَلُّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »[1] .

وقيل ان المراد بابتغاء وجه الله هو التوجه الى الله تعالى بالاعمـال الصالحة ، أي الاخلاص في العبادة ، والقرآن الحكيم يقول :

« أَلا لِلهِ الدِّينُ الخالِصُ »[2] .

وابتغاء وجه الله تعالى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجزء من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم .

وهو خلق سني علي ، وفضيلة رفيعة منيعة ، وانما يتحلى بها أهـــل

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٥ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣ .

الصفاء والنقاء ، والاخلاص والوفاء الذين لا يعرفون في سلوكهم طريق النفاق ، لأن ابتغاء وجه الله لا يجتمع أبدا مع الرياء ، وهؤلاء يريدون بأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وجه ربهم وذاته ، فرضاه مقدم على رضا الناس ، وحقه فوق كل الحقوق ، وهم دائما يتجهون الى الله ، يقبلون عليه ، ولا يطلبون سواه ، ولا يلتفتون الى من عداه « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

وقد ذكر القرآن الكريم : « ابتغاء وجه الله » في عدة مواطن ، منها قوله في سورة البقرة :

« ومَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ ، ومَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ » (١) .

فبيَّن الله تعالى أن النفقة المعتد بها انما هي ما كانت ابتغاء وجه الله. وقيل كما ذكر القرطبي ان هذه شهادة من الله سبحانه للصحابة رضوان الله عليهم ، بأنهم انما ينفقون ابتغاء وجه الله ، فجاء التعبير على وجه الثناء عليهم والتفضيل لهم .

وجاء في تفسير « مفاتيح الغيب » : « في هذه الآية وجوه : الاول ان يكون المعنى : ولستم في صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون الا وجه الله ، فقد علم الله هذا من قلوبكم ، فانفقوا عليهم اذا كنتم ، انما تبغون بذلك وجه الله ، في صلة رحم وسدّ خلة مضطر ، وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الانفاق عليهم .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٢ .

الثاني : أن هذا وان كان ظاهره خبرا ، الا أن معناه نهي ، أي ولا تنفقوا الا ابتغاء وجه الله ، وورد الخبر بمعنى الامر والنهي كثيرا . قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن » ، «والمطلقات يتربصن» .

الثالث : أن قوله : « وما تنفقون » أي ولا تكونوا منفقين مستحقين لهذا الاسم الذي يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله .

... وفي قوله : «الا ابتغاء وجه الله» قولان : الاول : انك اذا قلت فعلته لوجه زيد ، فهو أشرف في الذكر من قولك فعلته له ، لأن وجه الشيء أشرف ما فيه ، ثم كثر حتى صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ .

الثاني : أنك اذا قلت : هذا الفعل له ، فههنا يحتمل أن يقال : فعلته له ولغيره أيضا . أما اذا قلت : فعلت هذا الفعل لوجهه ، فهذا على أنك فعلت الفعل له فقط ، وليس لغيره فيه شركة .

وجاء في تفسير « مجمع البيان » :

« وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله » أي الا طلب رضوان الله ، وهذا اخبار من الله عن صفة انفاق المؤمنين المخلصين، المستجيبين لله ولرسوله، أنهم لا ينفقون ما ينفقونه الا طلبا لرضاء الله تعالى .

وقيل ان معناه النهي ، وان كان ظاهره الخبر ، أي ولا تنفقوا الا ابتغاء مرضاة الله .

وفي ذكر « الوجه » هنا قولان : أحدهما أن المراد به تحقيق الاضافة، لأن ذكر الوجه يرفع الابهام ، أنه له ولغيره ، وذلك أنك لما ذكرت الوجه ـ ومعناه النفس ـ دل على أنك تصرف الوهم عن الاشتراك الى تحقيق الاختصاص ، وان كنت بذلك محققا للاضافة ، ومزيلا لايهام الشركة .

والثاني : أنك اذا قلت : فعلته لوجه زيد ، كان أشرف في الذكر من :

فعلته له ، لأن وجه الشيء في الاصل أشرف ما فيه ، ثم كثر حتى صار يدل على شرف الذكر من غير تحقيق وجه . ألا ترى أنك تقول : وجه الرأي، ووجه الامر ، ووجه الدليل ، فلا تريد تحقيق الوجه ، وانما تريد أشرف ما فيه من جهة شدة ظهوره وحسن بيانه » .

ويعلق تفسير « في ظلال القرآن » على الآية بهذه العبارة :

« ان هذا هو شأن المؤمن لا سواه ، انه لا ينفق الا ابتغاء وجه الله، لا ينفق عن هوى ولا عن غرض ، لا ينفق وهو يتلفت الى الناس يرى ماذا يقولون ، لا ينفق ليركب الناس بانفاقه ، ويتعالى عليهم ويشمخ ، لا ينفق ليرضى عنه ذو سلطان ، أو ليكافئه بنيشان ، لا ينفق الا ابتغاء وجه الله ، خالصا متجردا لله . ومن ثم يطمئن لقبول الله لصدقته ، ويطمئن لبركة الله في ماله ، ويطمئن لثواب الله وعطائه ، ويطمئن الى الخير والاحسان من الله جزاء الخير والاحسان لعباد الله ، ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بعد في هذه الارض ، وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل » .

* * *

ويقول القرآن الكريم في سورة الانعام :

« وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، ومَا مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شيءٍ ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » (١) .

أي انهم في جميع الاحوال يقصدون وجه الله ورضاه ، ويفسر

(١) سورة الانعام ، الآية ٥٢ .

ذلك صاحب « لطائف الاشارات » على طريقته فيقول : « تقيدت دعوتهم بالغداة والعشي ، لأنها من الاعمال الظاهرة ، والاعمال الظاهرة مؤقتة ، ودامت ارادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم ، لأنها من الاحوال الباطنة مسرمدة غير مؤقتة ، فقال :

« يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ » .

ثم قال : « يريدون وجهه » أي « مريدين وجهه » .

ويقول التنزيل في سورة الرعد :

« والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ » (١) .

والقرآن هنا يتحدث عن صفات أولي الالباب الاوفياء الاتقياء ، ومن أهمها الصبر طلبا لرضى الله سبحانه ، ويعود صاحب « لطائف الاشارات» الى الحديث على طريقته الخاصة به وبصحبه فيقول : « الصبر يختلف باختلاف الاغراض التي لأجلها يصبر الصابر ، فالعبّاد يصبرون لخوف العقوبة ، والزهاد يصبرون طمعا في المثوبة ، وأصحاب الارادة هم الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم .

وشرط هذا النوع من الصبر رفض ما يمنع من الوصول ، واستدامة التوقي منه ، فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجرد عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العلة والزلة ، وعن كل شيء يشغل عن الله » .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٢٢ .

ويقول القرآن الكريم في سورة الكهف :

« وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيا ، وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً » (١) .

أي يذكرون ربهم على الدوام يبتغون ، وأهل التفسير يذكرون عند تفسير هذه الآية الحديث الذي تفرد بروايته أحمد ، وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مـا من قوم اجتمعوا يذكرون اللـه ، لا يريدون بذلك الا وجهه ، الا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفورا لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات » .

ويقول التنزيل الجليل في سورة الروم :

« فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ في أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُـمُ المُفْلِحُونَ » (٢) .

أي العبرة بالقصد لا بنفس العمل ، وانما الاعمال بالنيات ، ونيـة

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٣٨ و٣٩ .

المرء خير من عمله ، فان من انفق جميع أمواله رياء للناس ، لا ينال ــ كما يقول الرازي ــ من يتصدق برغيف لوجه الله تعالى .

ويقول القرآن الحكيم في سورة الانسان في حديثه عن صـفات الابرار :

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً »[1] .

أي ان هؤلاء الابرار الاخيار يطعمون الطعام لهؤلاء في الله جل ثناؤه ، وطمعا في ثوابه ورضاه ، لا يريدون عليه مكافأة ولا ثناء ، بل نيتهم خالصة لله عز وجل .

وجاء في سورة الليل قوله تعالى :

« فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى ، لا يَصْلاها إِلَّا الأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى ، ومَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى »[2] .

أي حذرتكم نارا تتلهب وتتوقد ، لا يذوق حرها الا الشقي الـذي يكذب بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعرض عن الايمان والطاعة . وسيحفظ الله من النار المتقي الخائف الذي يعطي ماله المحتاجين اليه بلا رياء ولا سمعة ، وانما يتصدق بها مبتغيا وجه الله تعالى ، فهو لا يتصدق

---

(١) سورة الانسان ، الآية ٨ و٩ .
(٢) سورة الليل ، الآية ١٤ ــ ٢١ .

ليجازي على نعمة ، أو ليرد جميلا أو ليقابل احسانا باحسان ، ولكن طلبا لرضى الله ، ولسوف يرضى الله ويرضيه بثوابه وجزائه .

* * *

وقد ذكرت السنة المطهرة ابتغاء رضى الله ووجهه في أكثر من موطن، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « انك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى الا أجرت بها ، حتى ما تجعل في فم زوجتك » .

وقد روى ابو داود : « لا نذر الا فيما ابتغي وجه الله تعالى ذكره ».

وروى النسائي : « لا يقبل من العمل الا ما كان خالصا وابتغي به وجهه » .

ولابتغاء وجه الله تعالى ثمرات جليلة منها :

١ ــ الوصول الى الخير والفلاح :

« ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » (١) .

٢ ــ الفوز بالاضعاف المضاعفة من الثواب والجزاء :

« وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُضْعِفُونَ » (٢) .

٣ ــ تحقيق الرضى من الله وهو غاية الغايات ، ورضى الانسان نفسه :

---

(١) سورة الروم ، الآية ٣٨ .

(٢) سورة الروم ، الآية ٣٩ .

« وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى »[1] .

٤ ــ الفوز بعقبى الدار :

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ »[2] .

وابتغاء وجه الله يدعو المؤمن الى طائفة من القربات والطاعات ، منها أداء حقوق ذي القربى والمسكين وابن السبيل ، واقامة الصلاة ، والانفاق سرا وعلانية مما رزق الله تعالى ، ودفع السيئة بالحسنة ، والصبر الجميل.

اللم احفظنا من الرياء والسمعة ، ووفقنا لابتغاء وجهك الكريم .

---

(١) سورة الليل ، الآية ١٩ ــ ٢١ .
(٢) سورة الرعد ، الآية ٢٢ .

اقامة الوجه لله

تقول لغة العرب ــ وهي لغة القرآن الكريم : ان الوجه هو الجزء من الانسان الذي فيه الفم والانف والعينان ، ويطلق الوجه على الذات ، لأن الوجه أشرف الاجزاء ، ويطلق أيضا على صدر الشيء وأوله .

وأقام الشيء عدله وأزال عوجه . وأقام دين اللـه أظهره وعمـل بتعاليمه ، وأقام حدود الله : حافظ عليها ولم يجاوزها ، وأقام وجهـه للشيء : اهتم به ، وأقبل عليه بنشاط ، ومادة « أقام » تدور المعاني التي تفيدها حول النهوض ، أو انتصاب القامة ، أو الاعتدال ، بالمعنى المـادي أو المعنوي .

وفي المادة كذلك معنى الدوام والمحافظة .

واقامة الوجه لله ــ أو اسلام الوجه لله ــ خلق من أخلاق القرآن الحكيم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم ، وهو خلق ينهض عـلى أسـاس التوحيـد لله ، والاخلاص في طاعته ، واللجوء اليه على الدوام ، والرجاء منه في كل حال، وعدم الالتفات الى سواه ، وقد تحدث التنزيل المجيد عن هذا الخلق في مواطن كثيرة ، فمن ذلك قوله في سورة البقرة :

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

وأسلم هنا معناها استسلم وخضع وفوض ، وأخلص عمله لبارئه ، أو كما يعبر « تفسير المنار » اسلام الوجه لله هو كمال التوجه اليه وحده، وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، كما قال في سورة الفاتحة :

« إِياكَ نَعْبُدُ وَإِيّاك نَسْتَعِينُ » (٢) .

وقد عبَّر عن اسلام القلب ، وصحة القصد الى الشيء ، باسلام الوجه ، كما عبر بتوجيه الوجه ، أو اقامة الوجه ، في مواطن أخرى ، كما سنرى بعد قليل . وذلك لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه ، فلما كان توجيه الوجه الى شيء له جهة ، تابعا لقصده ، واشتغال القلب به ، عبر عنه به ، وجعل التوجه بالوجه الى جهة مخصوصة ــ وهي القبلة ــ بأمر الله مذكرا باقبال القلب على الله الذي لا تحدده الجهات .

فالانسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه ، وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع . والمراد من اسلام الوجه لله افراده بالعبادة والاخلاص له ، بأن لا يجعل الانسان بينه وبين ربه وسطاء يقربونه اليه زلفى ، فانه أقرب اليه من حبل الوريد .

ويقول الله تعالى في سورة النساء :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٢ .
(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

وَاتَّبعَ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »[1] .

أي أخلص دينه ، وخضع له ، وتوجه اليه في العبادة ، وكان له مثل أعلى في ابراهيم أبي الانبياء وخليل الرحمن ، الذي كان محبا لله ، وكان محبوبا لله .

ولا أحد أحسن دينا ممن جعل قلبه سالما خالصا لله وحده ، لا يتوجه الى غيره في دعاء أو رجاء ، ولا يرى في هذا الوجود الا آثار صفات الله وسننه ، فلا يطلب الا من خزائن رحمته ، وهو مع ايمانه وتوحيده ، محسن في عمله ، متخلق بأخلاق الله الذي أحسن كل شيء خلقه .

والامام محمد عبده يقول ان العبرة عند الله بالقلوب والاعمال ، وملة ابراهيم الحنيفية هي الصفوة في اخلاص التوحيد واحسان العمل ، وعبر عن توجه القلب باسلام الوجه ، لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من الاقبال والاعراض ، والسرور والكآبة ، وغير ذلك .

ويقول التنزيل الحكيم في سورة آل عمران :

« فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ »[2] .

والمقصود من الدين انما هو الوفاء بلوازم الربوبية ، فاذا أسلمت وجهي لله لا اعبد غيره ، ولا أتوقع الخير الا منه ، ولا أخاف الا من قهره وسطوته ، ولا أشرك به أحدا ، كان هذا هو تمام الوفاء بلوازم الربوبية والعبودية .

ويذكر الفخر الرازي في معنى اسلام الوجه لله ثلاثة أقوال :

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٠ .

الاول : أخلصت عملي للـه . يقـال : أسلمت الشيء لفـلان ، أي أخلصته له ، ولم يشاركه فيه غيره .

الثاني : أسلمت وجه عملي لله ، فكل ما يصدر مني من الاعمال ، فالوجه في الاتيان بها هو عبوديتي لله تعالى ، والانقياد لالهيته وحكمه .

الثالث : أسلمت نفسي لله ، وليس في العبادة مقام أعلى من اسلام النفس لله ، فيصير العبد كأنه موقوف على عبادته ، عادل عن كل ما سواه .

وقيل ان معنى الآيـة السابقة : ان جادلـوك بالاقـاويل المـزورة والمغالطات ، فأسند أمرك الى ما كلفت به من الايمان والتبليغ ، وتوجه الى الله بذاتك ، كما جاء في الحديث الشريف : « سجد وجهي للذي خلقـه وصوره ، وكأن النص الكريم يقول ــ كما يعبر الاستاذ الامـام محمد عبده ــ ان من يقصد الى الحجاج ، بعد تأييد الحق ، وتفنيد الباطل ، لا يقصد الا الى المجادلة والمشاغبة ، لمحض العناد والمشاكسة ، وذلك شـأن المبطلين ، وأما طالب الحق فانه يبخل بالوقت أن يضيع .

ولقد تعرض الفخر لمعنى اسلام الوجه لله عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة :

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ » (١) .

وذكر في ذلك وجوها :

أولها : أن الوجه أشرف الاعضاء ، من حيث انه معـدن الحواس والفكر والتخيل ، فاذا تواضع الاشرف ، كان غيره بالتواضع أولى .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٢ .

ثانيها : ان الوجه قد يكنى به عن النفس ، قال الله تبارك وتعالى :

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »[1] .

وقال :

« إِلا ابْتغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلى »[2] .

ثالثها : ان أعظم العبادات هي السجدة ، وهي انما تحصل بالوجه ، فلا جرم خص الوجه بالذكر ، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الارض تحمل صخرا ثقالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا

فيكون المرء واهبا نفسه لهذا الامر ، باذلا لها .

وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء ، وذلك لا يكون الا بالانقياد والخضوع واذلال النفس في طاعته ، وتجنب معاصيه .

ومعنى : « لله » أي خالصا لله ، ولا يشوبه شرك ، فلا يكون عابدا مع الله غيره ، أو معلقا رجاءه بغيره . وفي ذلك دلالة على أن المرء لا ينتفع بعمله الا اذا فعله على وجه العبادة في الاخلاص والقربة .

وأما قوله تعالى : « وهو محسن » أي لا بد أن يكون تواضعه لله بفعل حسن لا بفعل قبيح . وبين أن من جمع بين الامرين : الاخلاص والاحسان ، فله ثواب عظيم عند ربه ، وفوق هذا لا يلحقه خوف من مستقبل ، ولا يناله حزن من الحاضر أو الماضي .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٨٨ .
(٢) سورة الليل ، الآية ٢٠ .

ويقول التنزيل المجيد في سورة الانعام :

« إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » [١] .

وهذا الكلام على لسان أبي الانبياء خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام . أي وجهت عبادتي وطاعتي لربي ، وذلك لأن من كان مطيعا لغيره، منقادا لامره ، فانه يتوجه بوجهه اليه ، فجعل توجيه الوجه كناية عن الطاعة.

وانما جعلت وجهي خالصا لله ، لأنه الذي أبدع خلق السموات والارض وما فيهن ، وأكمل خلقهن أطوارا .

ويقول الحق جل جلاله في سورة الاعراف :

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » [٢] :

أي أقبلوا على مساجد الله ، وعلى الصلاة فيها باخلاص . والاخلاص يقتضي تجرد النية ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « انما الاعمال بالنيات » . ويقول : « ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اعمالكم. ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم » .

والمعنى : أعطوا لربكم توجهكم عند كل مسجد تعبدون الله فيه ، مع صحة النية ، وحضور القلب ، وصرف الشواغل ، وادعوه مخلصين له

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٧٩ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٢٩ .

الدين . ولنتذكر أن كل شيء من أعمال العباد هالك وباطل ، الا ما أريد به وجه الله ، ولذلك يقول القرآن في سورة القصص :

« وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (١) .

ويقول في سورة يونس :

« وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ » (٢) .

واقامة الوجه هنا كناية ــ كما يقول الرازي ــ عن توجيه العقل بالكلية الى طلب الدين ، لأن من يريد أن ينظر الى شيء نظرا بالاستقصاء فانه يقيم وجهه في مقابلته ، بحيث لا يصرفه عنه بالقليل ولا بالكثير ، لأنه لو صرفه عنه ولو بالقليل ، لبطلت تلك المقابلة ، واذا بطلت فقد اختل الابصار ، فلهذا حسن جعل اقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية الى طلب الدين ، وحنيفا أي مائلا اليه ميلا كليا ، معرضا عما سواه اعراضا كليا ، ويتحقق ذلك بالاخلاص التام ، وعدم الالتفات الى غيره .

ويقول التنزيل الحكيم في سورة الروم :

« فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ،

---

(١) سورة القصص ، الآية ٨٨ .
(٢) سورة يونس ، الآية ١٠٥ .

وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » [1] .

أي أقبل بكلك على الدين ، مائلا عن كل ما عداه ، والزم فطرة الله ، وهي فطرة التوحيد . وكذلك يقول في السورة نفسها :

« فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ » [2] .

ويقول الذكر المجيد في سورة الانسان :

« إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جزاءً ولا شُكُوراً » [3] .

وقد جاءت في تفسير « مفاتيح الغيب » عند هذه الآية الكريمة العبارة التالية : « الاحسان الى الغير تارة يكون لأجل الله تعالى ، وتارة يكون لغير الله تعالى ، اما طلبا لمكافأة ، أو طلبا لحمد وثناء ، وتارة يكون لهما ، وهذا هو الشرك . والاول هو المقبول عند الله تعالى ، وأما القسمان الباقيان فمردودان . قال تعالى :

« لاَ تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بالمنِّ والأَذَى ، كالَّذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ » [4] .

وقال :

(1) سورة الروم ، الآية ٣٠ .
(2) سورة الروم ، الآية ٤٣ .
(3) سورة الانسان ، الآية ٩ .
(4) سورة البقرة ، الآية ٢٦٤ .

« وما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ في أَمْوالِ النَّاسِ فلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ، وما آتَيْتُمْ مِنْ زكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُضْعِفُون »[1] .

ولا شك ان التماس الشكر من جنس المن والاذى .

اذا عرفت هذا فنقول : القوم لما قالوا : انما نطعمكم لوجه الله ، بقي فيه احتمال أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الاغراض على سبيل التشريك ، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله : « لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » .

* * *

ولاقامة الوجه لله ثمرات أشار القرآن الى جانب منها حين قال في سورة البقرة :

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ »[2] .

وفي هذه الآية الكريمة اشارة الى ثلاث ثمرات ، هي :

١ ــ نيل الاجر الجزيل ، واستحقاق الكرامة في دار الاقامة .

٢ ــ عدم الخوف .

٣ ــ عدم الحزن .

وتتحقق تلك الثمرات ــ كما نفهم من النص الكريم ــ باجتماع

---

(١) سورة الروم ، الآية ٣٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٢ .

أمرين ، هما التوحيد النابع من الايمان الخالص ، واحسان العمل .

وأما غير المؤمنين فهم نهب الخوف والحزن ، ولا شك ـــ كما يقول تفسير المنار ـــ أن المخاوف والاحزان تساور الذين لبسوا ايمانهم بظلم الوثنية ، وأساءوا أعمالهم بالاعراض عن الهداية الدينية .

ترى أصحاب النزغات الوثنية أو الالحادية في خوف دائم حتى مما لا يخيف ، لأنهم يعتقدون ثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون الى سببه ، ولا يعرفون تأويله .

يستخذون للدجالين والمشعوذين ، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة، اذا ظهر لهم نجم مذنَّب ، تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك ، واذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد ، توهموا أنها من تصرف بعض العباد ، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث ، ونزول الكوارث ، لا يصبرون في البأساء والضراء ، ولا ينفقون في الرخاء والسراء :

« إِنَّ الإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلاَّ المُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاَتِهِمْ دائِمُونَ » .

ويلح التفسير في البيان فيقول ان هذه حال من فقد التوحيد الخالص ، وحرم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا :

« وَلَعَذَابَ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ » .

وانما كان صاحب النزغات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن مما ينزل به ، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها

في نفسه ، ويجعلها حجابا بينه وبين ربه ، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها ، ولا يجد عندها غناء اذا هو لجأ اليها ، وما هو من سلطتها على يقين، وانما هو من الظانين أو الواهمين .

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أن لا فاعل الا الله تعالى ، وأنه من رحمته قد هدى الانسان الى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله ، فاذا أصابه ما يكره بحث في سببه ، واجتهد في تلافيه من السنة التي سنها الله تعالى لذلك ، فان كان أمرا لا مرد له ، سلم أمره فيه الى الفاعل الحكيم ، فلا يحار ولا يضطرب ، لأن سنده قوي عزيز ، والقوة التي يلجأ اليها كبيرة لا يعجزها شيء ، فاذا نزل به سبب الحزن ، أو عرض له مقتضى الخوف ، لا يكون أثرهما الا كما يطيف الخاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ »[1] .

ومن ثمرات اقامة الانسان وجهه لله تبارك وتعالى النجاة والامان ، والترقي الى أعلى الدرجات والاستمساك بحبل متين لا ينقطع ، لأن أوثق الاسباب هو جانب الله ، وكل ما عداه هالك ومنقطع :

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى ، وَإلى اللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ »[2] .

اللهم انا نسألك بفضلك وطولك وحولك أن تقيم وجوهنا لك وحدك ، وأن ترزقنا الاخلاص في عبادتك ، انك أنت البر الرحيم .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ٢٢ .

القسط

مادة « القسط » تدل على معنيين متضادين ، فالقسط ـ بكسر القاف هو العدل ، والقسط ـ بفتح القاف ـ هو الجور . وقال الاصفهاني ان القسط هو أن يأخذ قسط غيره ، وذلك جور ، والاقساط أن يعطي قسط غيره ، وذلك انصاف . والقسط هو النصيب المستحق بالعدل ، وهو القسم من الرزق الذي يصيب كل مخلوق ، وفي الحديث : « ان الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه » أي يقلل النصيب من الرزق أو يكثره حسب حكمته . ومن هنا يظهر فرق دقيق بين القسط والعدل ، فالمقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم ، وكمال الاقساط هو أن يضيف المقسط الى ارضاء المظلوم ارضاء الظالم ، وذلك غاية العدل والانصاف ، ولا يقدر عليه الا الله تعالى . وأما العدالة فهي لفظ يقتضي معنى المساواة . ويظهر الاقساط غالبا عند القسمة ، ولذلك جاء في مسند ابن حنبل : « واذا قسموا أقسطوا » .

وقد سبق أن كتبت عن العدل في سلسلة « أخلاق القرآن » ومعنى القسط قريب من معنى العدل ، وان كنا قد لحظنا أن هناك فرقا بينهما، لأن العدل هو المساواة ، والقسط هو النصيب الذي يعطى بالحق ، ومن هنا لا ضير في أن نعود الى تتبع مواطن القسط في القرآن الكريم ، والازدياد

من رحيقه خير وبركة .

وأعظم تشريف لهذه الفضيلة القرآنية انها صفة من صفات الله عز وجل ، فالقرآن يقول في سورة يونس :

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فإذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ » (١) .

والقاضي بالقسط هو الله . ومن أسماء الله الحسنى اسم «المقسط». ومعناه كما سبق أن ينتصف للمظلوم من الظالم مع ارضائهما معا .

ومثاله كما روى الغزالي في « المقصد الأسنى » أنه قال :

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، اذ ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما الذي أضحكك ؟.

قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ مظلمتي من هذا .

فقال الله عز وجل : رد على أخيك مظلمته .

فقال : يا رب ، لم يبق من حسناتي شيء .

فقال عز وجل للطالب : كيف تصنع بأخيك ؟ لم يبق من حسناته شيء.

فقال : يا رب ، ليحمل عني من أوزاري .

ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ، وقال : ان ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس الى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، قال : فيقول الله عز وجل ــ أي للمتظلم ــ : ارفع بصرك فانظر في الجنان .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٤٧ .

فقال : يا رب ، أرى مدائن من فضة ، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ ، لأي صدّيق ، أو لأي شهيد هذا ؟.

قال الله عز وجل : لمن أعطى الثمن .

فقال : يا رب ، ومن يملك ذلك ؟

قال : أنت تملكه .

قال : بماذا يا ربي ؟.

قال : بعفوك عن أخيك .

قال : يا رب ، عفوت عنه .

قال الله عز وجل : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة .

فهذا سبيل الانتصاف والانصاف ، ولا يقدر عليه الا رب الارباب ، وأوفر الناس حظا من هذا الاسم من ينتصف أولا من نفسه ، ثم لغيره لغيره ، ولا ينتصف لنفسه من غيره » .

ويقول الله تعالى في سورة يونس :

« إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ بالقِسْطِ » (١).

أي يعطي كل عامل حقه من الثواب الذي جعله الله لعمله ، لا يظلم منه شيئا .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٤ .

ويقول التنزيل المجيد في سورة آل عمران :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »[1] .

فالله جل جلاله يقوم باجراء الامور وتدابير الخلق وجزاء الاعمال بالعــدل .

وقد جاء في « تفسير المنار » أن المعنى أنه تعالى شهد هذه الشهادة قائما بالقسط وهو العدل في الدين والشريعة . وفي الكون والطبيعة ، فمن الاول تقرير العدل في الاعتقاد ، كالتوحيد الذي هو وسط بين التعطيل والشرك ، ومن الثاني جعل سنن الخليقة في الاكوان والانسان الدالة على حقية الاعتقاد قائمة على أساس العدل ، فمن نظر في هذه السنن ونظامها الدقيق يتجلى له عدل الله العام ، فالقيام بالقسط على هذا من قبيل التنبيه الى البرهان على صدق شهادته تعالى في الآفاق والانفس ، لأن وحدة النظام في هذا العدل تدل على وحدة واضعه .

كذلك أحكامه تعالى في العبادات والآداب والاعمال مبنية على أساس العدل بين القوى الروحية والبدنية ، وبين الناس بعضهم مع بعض .

واذ قد تجلى لك صدق الشهادة ، فمن واجبك أن تقر بهــا مرددا : « لا اله الا هو العزيز الحكيم » تفرد بالالوهية وكمال العزة والحكمة ، فلا يغلبه أحد على ما قام به من سنن القسط ، ولا يخرج منها شيء عــن مقتضى الحكمة البالغة .

والرسول صلى الله عليه وسلم مأمور من ربه بأن يكون خير الناس

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨ .

في التحلي بفضيلة القسط ، فيقول الحق جل جلاله في سورة المائدة :

« وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[1] .

والمقسطون هم المقيمون للقسط بالحكم به أو الشهادة أو غير ذلك .

وقد روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان قريظة وبنو النضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، وكان اذا قتل رجل من النضير رجلاِ من قريظة ودى مائة وسق من تمر فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا : ادفعوه الينا لنقتله ، فقالوا : بيننا وبينكم النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى: « وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ».

والله جل جلاله قد دعا الى القسط وحث عليه ، فقال في سورة الاعراف :

« قُلْ أَمَرَ رَبِّي بالقِسْطِ »[2] .

أي بالاعتدال في الامور كلها ، وهو الوسط بين الافراط والتفريط.

وقال الحق سبحانه في سورة النساء :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُن

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٢ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٢٨ .

غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فاللهُ أَوْلَى بِهِما فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضوا فإِنَّ اللهَ كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيراً » (١) .

يذكر « تفسير المنار » ان القوامين بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالاتيان به على أكمل الوجوه وأدومها ، وذلك لأن القوام هو المبالغ في القيام بالشيء ، والقيام بالشيء هو الاتيان به مستويا تاما بلا نقص ولا عوج ، ومن بنى جدارا لا يقال انه أقامه مهما أطاله . والقرآن يقول :

« فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فأَقامَهُ » (٢) .

وانما احتاج الجدار الى الاقامة لأنه كان مائلا متداعيا للسقوط .

وكونوا قوامين بالقسط : أي لتكن المبالغة والعناية باقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم ، بأن تتحروه بالدقة التامة ، حتى يكون ملكة راسخة في نفوسكم . والقسط يكون في العمل كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والاولاد ، ويكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان، أو يحكمه الناس فيما بينهم .

وكان ينبغي ـ كما يقول صاحب المنار ـ أن يكون المسلمون بمثل هذه الهداية أعدل الامم وأقومهم بالقسط ، وكذلك كانوا مهتدين بالقرآن، وصدق على سلفهم قوله تعالى :

« وَمِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » (٣) .

ثم خلف من بعد أولئك السلف خلف نبذوا هداية القرآن وراء

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٤ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٧٧ .
(٣) سورة الاعراف ، الآية ١٨١ .

ظهورهم ، حتى صارت جميع الامم تضرب المثـل بظلم حكامهم وسـوء حالهم ، وتفخر عليهم بالعدل .

ويقول التنزيل المجيد في سورة المائدة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآن قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ » [1] .

كونوا قوامين بحق الله عليكم ، واشهدوا بالحق من غـير ميل الى أقاربكم ، أو حيف على اعدائكم ، ولا يحملنكم البغض على الدخول في جريمة الظلم ، لأن كراهيتكم لبعض الناس قد تؤدي بكم الى ترك العدل ، مع أن كفر الكافر لا يمنع العدل معه . والرسول عليه الصلاة والسـلام يقول : « أد الامانة الى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك » .

ويعود «تفسير المنار» ليبين ان الشهادة بالقسط معروفة ، وهي أن تكون بالعدل ، دون محاباة مشهود له ، ولا مشهود عليـه ، لا لقرابتـه وولائه ، ولا لماله وجاهه ، ولا لفقره ومسكنته ، فالشهادة هنا عبارة عـن اظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو اظهاره هو اياه بالحكم به ، أو الاقرار به لصاحبـه .

والقسط هو ميزان الحقوق ، متى وقعت فيه المحاباة والجـور لأي سبب أو علة من العلل ، زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المفاسد وضروب العدوان بينهم ، وتقطعت روابطهم الاجتماعية ، وصار بأسهم بينهم شديدا، فلا يلبثون أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب الى اقامة العدل.

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨ .

والشهادة بالقسط منهم ، فيزيلون استقلالهم ، ويذيقونهم وبالهم ، وتلك سنة الله التي شهدناها في الامم الحاضرة ، وشهد بها تاريخ الامم الغابرة، ولكن الجاهلين الغافلين لا يسمعون ولا يبصرون ، فأنى يعتبرون ويتعظون.

ويقول الله عز شأنه في سورة النساء :

« يا أَيها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ » (١) .

أي ليتكرر منكم القيام بالقسط ، في شهادتكم على أنفسكم ، ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما ، ثم ثنى بالاقربين اذ هم مظنة المودة والتعصب ، فكان الاجنبي من الناس أحرى أن يقام عليه بالقسط ويشهد عليه ، وقوله : شهداء لله ، أي لذات الله ولوجهه ، ولمرضاته وثوابه ، دون ميل أو اتباع للهوى فانه مهلك .

ويقول القرآن الحكيم في سورة الانعام :

« وأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزانَ بالقِسْطِ » (٢) .

بينت كلمة القسط أن الايفاء يجب أن يكون من الجانبين ، أي أوفوا مقسطين أو ملابسين للقسط ، وهذا يقتضي طرفين يقسط بينهما ، فدل على أن الانسان يجب عليه أن يرضى لغيره ما يرضاه لنفسه .

ويذكر القرطبي أن الايفاء يكون بالاعتدال في الاخذ والعطاء ، عند البيع والشراء ، في حدود الطاقة وقدرة البشر ، وما لا يمكن التحرز عنه من تفاوت بين الكيلين ، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمعفو عنه .

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٥ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ١٥٢ .

وقال بعض العلماء : لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب للغير بما لا يجب عليها أمر المعطي بايفاء رب الحق الذي هو له ، ولم يكلفه الزيادة عليه من ضيق نفسه بها ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه ، ولم يكلفه الرضى بأقل منه ، لما في النقصان من ضيق نفسه .

وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبدالله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغلول في قوم قط الا ألقى الله في قلوبهم الرعب ، ولا نشأ الزنى في قوم الا كثر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المكيال والميزان الا قطع عنهم الرزق ، ولا حكم قوم بغير الحق الا نشأ فيهم الدم ، ولا حقّر قوم بالعهد الا سلط عليهم الله العدو .

وقد أكد رسول الله شعيب هذه الدعوة الى قومه أهل مدين ، فقال القرآن المجيد على لسانه في سورة هود : « يا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط » .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) .

ذكر بعض المفسرين أن ناسا من بني اسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم الى الله عز وجل فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين يأمرونهم بالاسلام فقتلوهم ، فنزلت الآية .

و... روي عن ابن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط بين الناس ، بئس القوم

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢١ .

قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، بئس القــوم قوم يمشي المؤمن بينهم بالتقية » .

ويذكر تفسير المنار أن الذين يأمرون بالقسط هم الحكماء الـذين يرشدون الناس الى العدالة العامة في كل شيء ويجعلونها روح الفضـائل وقوامها ، ومرتبتهم في الهداية والارشاد تلي مرتبة الانبياء ، وأثرهم في ذلك يلي أثرهم ، ذلك أن جميع طبقات الناس تنتفع بهدي الانبياء ، كل صنف بقدر استعداده ، وأما الحكماء فــلا ينتفع بهم الا بعض الخواص المستعدين لتلقي الفلسفة .

ألم تر كيف اصطلم التوحيد وثنية العرب في مدة قليلة بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام ، وكيف عجزت دعوة فلاسفة اليونان الى التوحيـد عن مثل ذلك أو ما يقاربه ، فلم يستجب لهم فيها في الزمن الطويل الا قليل من طلاب الفلسفة .

ذلك بأن دعوة النبي على ما تختص به من التأييد الالهي ، وتأثير روح الوحي ، لها ثلاثة مظاهر بينها الله تعالى في قوله :

« أَدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ، وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » (١) .

فالحكمة ما يدعى به العقلاء وأهــل النظر من البراهين والحجـج ، والموعظة الحسنة ما يدعى به العوام السذج ، والجدل بالتي هي أحسن للمتوسطين الذين لم يرتقوا الى الاستعداد لطلب الحكمة ولا ينقادون الى الموعظة بسهولة ، بل يبحثون بحثا ناقصا ، فلا بد من الحسنى في مجادلتهم ومخاطبتهم على قدر عقولهم .

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

وأما الحكماء فان لهم طريقة واحدة في الدعوة الى الحق والفضيلة مبنية على طلب العدل في الافكار والاخلاق . وقد يكون الحكيم الذي يدعو الى ذلك متدينا ، ويجري في الاقناع على الطريقة المذكورة آنفا ، وقد يكون غير متدين ، وهو مع ذلك يدعو الى القسط والعدل عن طريق العقل ، بحسب ما وصل اليه علمه مع الصدق والاخلاص .

والاقدام على قتل هؤلاء دليل على غمط العقل ومقت العدل ، وأقبح بذلك جرما ، وكفى به اثما .

وهناك أناس أولى بالقسط من غيرهم ، كاليتامى الذين يستحقون مزيدا من الرعاية والعناية ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً » (١) .

أي عليكم أن تعنوا عناية خاصة بتحري القسط مع اليتامى على أتم الوجوه وأكملها ، بل ينبغي أن يعامل اليتيم بالفضل لا بمجرد العدل ، ولمعاملة اليتيم ثلاث درجات : الاولى درجة الحرام وهو هضم أي حق من حقوقه ، والثانية القيام له بالقسط ، وألا يظلمه أحد في حقه ، والثالثة الزيادة بالفضل والاكرام .

ويقول الله تعالى في سورة النساء :

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٢٧ .

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى فَانْكِحُوا ما طاب لَكُمْ مِنَ النِّساءِ » (١) .

روى مسلم عن عروة عن عائشة في هذه الآية قالت : يا ابن اختي ، هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله ، فيعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهى الله تعالى أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

هذا ، ويقول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا » .

اللهم اكتب لنا بفضلك وكرمك أن نكون من المقسطين .

(١) سورة النساء ، الآية ٣ .

النصيحة

تقول لغة العرب ــ وهي لغة القرآن ــ النصح هو تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه ، وهو من قولهم : نصحت له الود أي أخلصته ، وناصح العسل خالصه . يقال نصحه ونصح له أي تحرى ما ينبغي له وما يصلح ، وأراد له الخير ، وأخلص له في تدبير أمره . ونصح العبد لله أي وقف عندما أمر وما نهى ، وفعل محابه وتجنب مساخطه . ونصح للرسول صلى الله عليه وسلم : صدق نبوته والتزم ما جاء به ، وتخلّق بأخلاقه بقدر طاقته . ونصح لنفسه : تجنب ما يؤذيها في الدنيا والآخرة .

والنصيحة خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وجانب من هدي الرسول الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم . فالمؤمن من شأنه أن يحب الخير لنفسه وأخيه ، وتجده دائما فيه نزعة الخير التي تدفعه الى التوجيه والنصح ، ليشيع الخير ويسود التعاون على البر ، فهو يدعو الى الخير ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، والقرآن الكريم يقول في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ، يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ »[1].

وحسب فضيلة النصيحة علوا وشرفا أنها صفة من صفات الانبياء ، وفضيلة من فضائل الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم النماذج العليا للبشرية ، فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه كما جاء في سورة الاعراف :

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ »[2].

أي أبلغكم ما أرسلني الله تعالى به اليكم من علم وحكمة ، وأنصح لكم ، أي أخلص لكم فيما أعظكم به من الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وأنا على علم أوحاه الله اليّ ، وأنتم لا تعلمون من هذا العلم شيئا ، فاذا نصحت لكم ، وأنذرتكم سوء العاقبة من كفركم واجرامكم ، وحذرتكم نقمة الله وعذابه ، فانما أنصح لكم عن علم ويقين . وهذا هود عليه السلام يقول لقومه كما في سورة الاعراف :

« أُبلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وأَنا لكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ »[3].

أي أبلغكم التكاليف التي أرسلت بها ، وأنا لكم ناصح فيما أبلغكم اياه ، وأدعوكم اليه لأن فيه سعادتكم ، وأنا أمين في نقله عن الله اليكم ، فأنا ليس من طبعي ولا من شأني أن أكذب ، فكيف أكذب على الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٦٢ .
(٣) سورة الاعراف ، الآية ٦٨ .

وهذا صالح عليه السلام يقول أيضا لقومــه كما جــاء في سورة الاعــراف :

« فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ » [1] .

وكذلك أهل الفساد يضيقون ذرعا بالناصحين لهم ، ولا يحبونهم ، وقد يعادونهم ويناصبونهم العداوة ، لأن طعم النصح مر ، وقد يتضمن تكليف الانسان الاقلاع عن شهوة من الشهوات ، أو ترك لذة من الملذات، وهذا صعب في العادة على النفس الامارة بالسوء الا من رحم الله .

وهذا شعيب عليه السلام يقف من قومه الموقف نفسه كما جاء في سورة الاعراف :

« فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ » [2] .

انني يا قوم قد أبلغتكم ما أرسلني الله به اليكم من العقائد والمواعظ، والاحكام والآداب ، ونصحت لكم بما بينته من معانيها ، والترغيب فيها ، وانذار عاقبة الكفر بها ، فكيف أحزن على قوم عصــاة أعــذرت اليهم ، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ، فأبوا الا الكفران .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

« لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ

(١) سورة الاعراف ، الآية ٧٩ .
(٢) سورة الاعراف ، الآية ٩٣ .

لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إذا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [1] .

ليس على الضعفاء الذين لا يقوون على الجهاد ، كالشيوخ والعجزة والزمنى ، ولا على الفقراء الذين لا يجدون مالا ينفقون منه على أنفسهم ، ليس على هؤلاء تضييق في حكم الشرع يعدون به مذنبين ، ولا اثم عليهم في القعود عن الواجب ، اذا أخلصوا لله تعالى في الايمان ، وللرسول صلى الله عليه وسلم في الطاعة وأداء الامانة بالقول والعمل ، ولا سيما الذي تقتضيه حالة الحرب ، فان النصيحة هي ما يصلح به الشيء ، ويكون خاليا من الغش والخلل .

والنصح لله وللرسول هنا هو كل ما فيه مصلحة الامة ، ولا سيما المجاهدين منها ، مثل كتمان الاسرار ، والحث على البر ، ومقاومة الخيانة في السر والجهر . فكل ناصح لله ولرسوله محسن ، لا سبيل الى مؤاخذته وايقاعه في الحرج .

وينبغي أن نفهم أنه لا فائدة من النصح دون استعداد للتلقي ولذلك نرى نبي الله نوحا يقول لقومه كما جاء في سورة هود :

« وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » [2] .

وقد مضت سنة الله تعالى ــ كما جاء في تفسير المنار ــ أن نفع النصح له شرطان أو طرفان ، هما الفاعل للنصح والقابل له ، وانما يقبله المستعد

---

(1) سورة التوبة ، الآية ٩١ .
(2) سورة هود ، الآية ٣٤ .

للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغيّ والفساد ، بمقارفة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه ، والكبر وهو غمط الحق ، واحتقار المتكبر لمن يزدري من الناس ، وتعصبه لما كان عليه الآباء والاجداد ، واتباع الهوى وحب الشهوات المانعة من طاعة الله . فمعنى ارادة الله تعالى لاغوائهم اقتضاء سنتهم فيهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم جزافا أنفا (بضمتين) أي ابتداء بغير عمل ولا كسب منهم لاسبابها ، فان هذا مضاد لمذهب أهل السنة في اثبات خلق الاشياء مقدرة بأقدارها ، ترتبط أسبابها بمسبباتها .

ومعنى قوله : « هو ربكم واليه ترجعون » هو أنه مالك أموركم ومدبرها ومسيرها على سننه المطردة في الدنيا ، ولكل شيء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، واليه ترجعون في الآخرة ، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها ، لا يظلم أحدا .

وينبغي ألا نغفل عن أن الناصح قد يكون مخادعا فلا تفيد نصيحته، وهذا الناصح المخادع قد يحس بالريبة والانكشاف ونحن نتذكر هنا أن اخوة يوسف عليه السلام قد وقفوا هذا الموقف كما جاء في سورة يوسف:

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » .

قالوا : أي شبهة عرضت لك فجعلتك لا تأمنا على يوسف ، وكأنهم أحسوا أنه قد ارتاب فيهم على حد قول القائل : « كاد المريب أن يقول خذوني » .

ولعل شعورهم بارتيابه فيهم هو الذي جعلهم يؤكدون كلامهم كل هذا التأكيد .

وهذا هو الشيطان الاثيم يريد ان يظهر بمظهر الناصح فيقول القرآن الكريم في سورة الاعراف :

« وَقَاسَمَهُما إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ » [1] .

هذا هو الشيطان اللعين يخادع فيدعي لآدم وحواء عليهما السلام أنه ناصح لهما ، وأكد دعواه بأشد المؤكدات وأغلظها ، وحرضهما على الاكل من الشجرة المحرمة ، فما زال يخدعهما بالترغيب في الاكل من تلك الشجرة حتى أسقطهما ، وحطهما مما كانا عليه من سلامة الفطرة ، وطاعة الخالق سبحانه ، بضرورة الباطل وخداعه الكذوب ، حيث نفخ في نار الشهوة الغريزية ، مثيرا لها فوقع آدم وحواء في الخطيئة ، بتأثير الوسوسة والتزيين . ومن هنا ينبغي للانسان أن يحذر المخادعين بالنصائح الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وقد ينصحون الانسان بالشيء يوهمونه أنه طريقه الى النجاة والفلاح ، مع أنه طريق الخراب والدمار .

وقد نوه القرآن المجيد بشأن النصيحة الخالصة المخلصة حين قال في سورة القصص على لسان من أخلص النصيحة لموسى فقال :

« إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » [2] .



هذا ولفضيلة النصيحة في السنة المطهرة شأن وذكر ، فقد قال سيدنا

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٢١ ــ ٢٢ .
(٢) سورة القصص ، الآية ٢٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف : «الدين النصيحة .

قلنا لمن يا رسول الله ؟.

قال : لله ولرسوله ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وقد ذكر العلماء أن النصيحة لله هي صحة الاعتقاد في وحدانيته ، واخلاص النية في عبادته .

والنصيحة لكتاب الله هي التصديق به والعمل بما فيه .

والنصيحة للرسول هي التصديق بنبوته ورسالته ، والانقياد لما أمر به ونهى عنه .

والنصيحة لعامة المسلمين هي ارشادهم الى مصالحهم .

وقد روى البخاري ومسلم عن جابر قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على اقام الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » .

وكأن فضيلة النصيحة كانت ركنا من أركان المبايعة التي يقوم بها المسلم اذا أعطى الرسول عليه الصلاة والسلام الميثاق والعهد بأن يسير على صراط الله المستقيم .

ونفهم من السنة المطهرة أن النصيحة تصبح واجبة اذا طلبها الاخ من أخيه في الله ، ويدل على ذلك قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له » .

ولقد عُني البصراء من الصوفية بأمر النصيحة وآدابها ، فهذا هو حاتم الاصم الصوفي يقول : « النصيحة للخلق : اذا رأيت انسانا في الحسنة أن تحثه عليها ، واذا رأيته في معصية أن ترحمه » .

وقد جاء في كتابي « من أدب النبوة »[1] أن هناك طائفة من نوابغ الكلم وردت على ألسنة الصالحين من السلف ، فالفضيل من عياض الزاهد يقول : « المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويعير » .

ويقول : « ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام ، وانما أدرك عندنا بسخاء الانفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للامة ».

وقال فرقد السبخي : « قرأت في بعض الكتب : المحب لله عز وجل أمير مؤمر على الامراء ، زمرته أول الزمر يوم القيامة ، ومجلسه أقرب المجالس فيما هناك ، والمحبة منتهى القربة والاجتهاد ، ولن يسأم المحبون من طول اجتهادهم لله عز وجل ، يحبونه ويحبون ذكره ، ويحببونه الى خلقه ويمشون بين خلقه بالنصائح ويخافون عليهم من اعمالهم يوم تبدو الفضائح ، أولئك أولياء الله وأحباؤه وصفوته ، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه » .

وقال الامام الحسن البصري : « قال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ان شئتم لأقسمن لكم بالله أن أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله الى عباده ، ويحببون عباد الله الى الله ، ويسعون في الارض بالنصيحة » .

اللهم هبنا نعمة النصيحة نسمعها من المخلصين ، ونقولها خالصة للمستجيبين ، فأنت نعم المولى ونعم المعين .

(١) كتابي « من أدب النبوة » ، صفحة ٤٢ . الطبعة الاولى ، سنة ١٩٧٠ ، نشر المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية .

الاتباع

تقول اللغة : تبعه واتبعه : سار وراءه ، سواء أكان السير حسيا أم معنويا ، والاتباع المعنوي هو الاقتداء والامتثال ، وأكثر ما جاء في القرآن الكريم هو من الاتباع المعنوي . ويقال : تبعه أي قفا أثره . والاتباع هو لحاق الثاني بالاول لما له به من التعلق ، فالقوة للاول . والثاني يستمد منه . والاتباع والاقتداء والاحتذاء نظائر .

والمعنى الاخلاقي للاتباع هو أن يميز الانسان الخبيث من الطيب . وأن يتبين طريقه على بصيرة، وأن يعرف من تقدمه على طريق الحق والصدق، فيتخذه قدوة وأسوة ، فيمضي اللاحق على سنن السابق فتوجد عند الانسان روح الاتباع ، وينأى بنفسه عن ضلال الابتداع .

والاتباع بهذا المعنى فضيلة من فضائل القرآن الكريم ، وخلق من أخلاق الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم.

وخير اتباع ينبغي أن يتجلى به المرء ، ويلتزمه ويحرص عليه هو اتباع هدى الله ، والتزام صراطه المستقيم ، لأن ذلك طريق الامان والاطمئنان . يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة :

« فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ »[1].

والمعنى : من اقتدى برسلي ، واحتذى أدلتي ، فلا يلحقهم خوف من أهوال يوم القيامة ، من العقاب ، ولا هم يحزنون على فوت الثواب .

وقال بعض المفسرين : ان المعنى أن من تبع هداي الذي أشرعه ، وسلك الصراط المستقيم الذي أحدده ، فلا خوف عليهم من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعقبها من الشقاء والخسران ، ولا هم يحزنون على فوت مطلوب أو فقد محبوب ، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران عن المجاهدين المؤمنين :

« فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عظيمٍ » [2] .

أي فزعوا الى الله يطلبون رضوانه فحقق لهم الامان والاطمئنان ، وعن الامام الصادق قال : عجبت لمن خاف كيف لا يفزع الى قوله سبحانه :

« حَسْبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » [3] .

فاني سمعت الله يقول عقبها : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

ويقول الله تعالى أيضا في سورة آل عمران على لسان حواريي عيسى عليه السلام :

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٧٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٧٣ .

« رَبَّنا آمَنَّا بما أَنْزلْتَ واتَّبَعْنا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ »[1] .

أي أطعنا الرسول واقتدينا به فاكتبنا في جملة الشاهدين بجميع ما أنزلت ، لنفوز كما فازوا ونتال من كرامتك ما نالوا .

ويقول التنزيل المجيد في سورة آل عمران أيضا :

« فإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي »[2] .

فان جادلوك في أمر الدين فقل أسلمت نفسي لربي ، وانقدت لأمر الله ، وأعرضت عن كل معبود سواه ، وأخلصت قصدي بالعبادة اليه ، ومن اهتدى بي في الدين من المسلمين. ويعلق تفسير (في ظلال القرآن) على هذا النص الكريم بقوله :

« فان حاجوك » ــ أي في التوحيد وفي الدين ــ « فقل : أسلمت وجهي لله » أنا « ومن اتبعن » والتعبير بالاتباع ذو مغزى هنا . فليس هو مجرد التصديق . انما هو الاتباع . كما ان التعبير باسلام الوجه ذو مغزى كذلك . فليس هو مجرد النطق باللسان أو الاعتقاد بالجنان . انما هو كذلك الاستسلام . استسلام الطاعة والاتباع .. واسلام الوجه كناية عن هذا الاستسلام . والوجه أعلى وأكرم ما في الانسان . فهي صورة الانقياد الطائع الخاضع المتبع المستجيب. هذا اعتقاد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومنهج حياته . والمسلمون متبعوه ومقلدوه في اعتقاده ومنهج حياته » ويقارن القرآن الكريم بين من فيه روح الاتباع لما يرضي الله ومن فيه نزعة التمرد على أمر الله ، فيجعل الاول جديرا بالرضوان ، والآخر مستحقا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٣ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

لسخط الله وعذابه ، فيقول في سورة آل عمران : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» والمعنى لا يستوي من اتبع رضوان الله وعمل بطاعته ففاز برضوانه ، ومن رجع بغضب الله حين عمل بمعصيته فان مصيره ومرجعه الى جهنم وبئس المصير .

واتبع رضوان الله : أي جعل ما يرضي الله اماما له فجد واجتهد في الخيرات والاعمال الصالحات ، واتقى الفواحش والمنكرات ، حتى زكت نفسه ، وارتقت روحه ، فلقي الجزاء الحسن ، وكان عند ربه في جنات النعيم . واتباع المؤمن للرضوان تعبير يفيد أن أسباب الرضوان أعلام هداية تتبع ، وأما صاحب الشر والخسران فانه في ظلمة لأنه يبتدع ولا يتبع .

وقد ذكر التنزيل المجيد أن أقرب الناس صلة بأبي الانبياء ابراهيم هم الذين اهتدوا فاتبعوه فكانوا من أهل الاتباع ، لا من أبالسة الابتداع ، فقال في سورة آل عمران :

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ ولِيُّ المُؤْمِنِينَ » (١) .

ان أحق الناس بنصرة ابراهيم بالحجة أو بالمعونة ــ هم الذين اتبعوه في وقته وفي زمانه ، وتولوه بالمناصرة على عدوه ، حتى ظهر أمره وعلت كلمته ، وهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا يتولون نصرته بالحجة ، لما عليه من الحق ، ونفي كل عيب عنه ، فهم الذين ينبغي لهم أن يقولوا : نحن على دين ابراهيم ، ولهم ولايته ، والله يتولى نصرة المؤمن لأن المؤمن ولي الله يطيعه ، ولهذا يقول الامام علي : « ان وليّ محمد من

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٨ .

أطاع الله وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته » .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران :

« إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(١) .

أي جاعل الذين آمنوا بك فوق الذين كذبوا عليك وكذبوك ، والفوقية هنا يراد بها في الظاهر الفوقية الروحانية الدينية ، وهي كونهم أحسن أخلاقا وأكمل آدابا ، وأقرب الى الحق والفضل وأبعد عن الباطل والاعتداء .

وقد قرر القرآن في سورة الاعراف أن الاتباع الصادق للرسول هو طريق الفلاح وسبب النجاح فيقول :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٥ .

فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [1] .

ان الذين يؤمنون بالنبي الامي محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحمونه من كل من يعاديه ، وينصرونه باللسان والسنان ، ويتبعون النور الاعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك المفلحون الفائزون بالنعمة العظمى والرضوان الكبير .

والرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهو قدوة الجميع ـ ما هو الا متبع لهدى ربه ، فهو امام في فضيلة الاتباع ، فالله تعالى يقول له كما في سورة الانعام :

« اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » [2] .

وجاء على لسانه في السورة نفسها قوله :

« إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحَى إِلَيَّ » [3] .

وهو في هذا يستجيب لأمر ربه الذي يقول له في سورة الاعراف :

« قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي » [4] .

ما أنا بمبتدع ولا بمفتر شيئا من آيات القرآن بعلمي وبلاغتي ، بل

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٥٧ .
(٢) سورة الانعام ، الآية ١٠٦ .
(٣) سورة الانعام ، الآية ٥٠ .
(٤) سورة الاعراف ، الآية ٢٠٣ .

أنا عاجز عن مثله كعجزكم ، انما أنا متبع لما يوحيـه ربي ، ومـا عليّ الا البلاغ المبين . واذا كان اتباع النبي لأمر ربه قد أكسبه رضا ربه عنه فان اتباع المؤمنين للمتبع الاول صلوات الله وسلامه عليه هو سبيل حب الله لهم ورضوانه عليهم . يقول القرآن في سورة آل عمران :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »(1) :

ان كنتم صادقين في دعوى محبة الله تعالى فاتبعوني ، فانكم ان فعلتم ذلك أحبكم الله وغفر لكم . ومن هذا نفهم أن من ثمرات فضيلة الاتباع حب الله للمتبع ومغفرته له . ويقول القرآن الكريم في سورة الانعام :

« وَأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ . وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(2) .

ان هذا القرآن الذي أدعوكم اليه ، وأدعوكم به الى ما يحييكم ، هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه الى مرضاة الله تعالى ، ونيل سعادة الدنيـا والآخرة ، فاتبعوه وحده ، ولا تتبعوا السبل الاخرى ، التي تخالفه وهي كثيرة ، فتتفرق بكم عن سبيله ، بحيث يذهب كل منكم في سبيل ضلالة منها ينتهي بها الى التهلكة ، اذ ليس بعد الحق الا الضلال ، وليس أمـام تارك النور الا الظلمات .

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .
(2) سورة الانعام ، الآية ١٥٣ .

هكذا ذكر « تفسير المنار » ، ثم أضاف :

« ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه هو الحق الموحد لأهل الحق الجامع لكلمتهم ، وتوحيدهم وجمع كلمتهم هو الحافظ للحق المؤيد له والمعز لأهله ــ كان التفرق فيه بما ذكر سببا لضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم ــ فهذا التفرق حل باتباع الانبياء السابقين ما حل من التخاذل والتقاتل والضعف وضياع الحق ، وقد اتبع المسلمون سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى حلّ بهم من الضعف والهوان ما يتألمون منه ويتململون .

ولم يردعهم عن ذلك ما ورد في التحذير منه في كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم وآثار الصحابة والتابعين ، ولا ما حل بهم من البلاء المبين ، ولم يبق بينهم وبين من قبلهم فرق الا في أمرين (أحدهما) حفظ القرآن من أدنى تغيير وأقل تحريف ، وضبط السنة النبوية بما لم يسبق له في أمة من الامم نظير (وثانيهما) وجود طائفة من أهل الحق في كل زمان تدعو الى صراط الله وحده ، وتتبعه بالعمل والحجة، كما بشر به صلى الله عليه وسلم ولكن هؤلاء قد قلوا في القرون الاخيرة . وكل صلاح واصلاح في الاسلام متوقف على كثرتهم .

فنسأله تعالى أن يكثرهم في هذا الزمان ويجعلنا من أئمتهم ، فقد بلغ السيل الزبى . روى ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس في قوله (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) وقوله (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ونحو هذا في القرآن قال : « أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنه انما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات » .



واذا كنّا قد أخذنا لمحات عن حديث القرآن الكريم عن فضيلة

الاتباع فقد يكون مما ينبغي لنا أن ننتقل الى روضة السنة المطهرة لمتابعة حديث الاتباع ، فقد روى الدارمي : « اتبع ولا تبتدع » ، كما روى : « لست بسبتدع ولكني متبع » وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك الاتباع ، وأمر بالحرص على اتباع سنته فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الامور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقد سبق قوله تعالى :

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » (١) .

على أن هناك نوعا من الاتباع يكرهه الاسلام ويقاومه وهو اتباع الهوى والنفس الأمارة بالسوء وقد جاء في صحيح الامام البخاري أن الحسين قال : « أخذ الله على الحكام ألا يتبعوا الهوى ، ولا يخشوا الناس ، ولا يشتروا بآياتي ثمنا قليلا» . ثم قرأ :

« يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بما نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ » (٢) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .
(٢) سورة ص ، الآية ٢٦ .

وقد روى الترمذي وابن ماجه الحديث : « العاجز من أتبـع نفسـه هواها » .

وقد جاء في صحيح مسلم : « العبادة في الحرج كالهجرة اليّ » .

وقد علق الامام ابن رجب الحنبلي في كتابه « لطـائف المعـارف » على هذا الحديث فكان مما قاله هذه العبارة :

« وسبب ذلك أن الناس في زمـن الفتن يتبعون أهواءهـم ، ولا يرجعون الى دين ، فيكون حالهم شبيها بحال الجاهليـة ، فاذا انفرد مـن بينهم من يتمسك بدينه ، ويعبد ربه ، ويتبع مراضيه ، ويجتنب مساخطه ، كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم مؤمنا به متبعا لأوامره مجتنبا لنواهيه » .



وقد تكلم البصراء من الصوفية الذين تبينوا طريق الحق المستقيم في تصوفهم عن فضيلة الاتباع ، وجعلوا القمة في ذلك هي اتباع أمر اللـه تبارك وتعالى ، وربطوا به اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قدوة كل مسلم كما قال الحق جل جلاله في سورة الاحزاب :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »[1] .

وهاهوذا أبو نصر السراج الطوسي في كتابـه « اللمع » يتحـدث عن هذا الجانب فيقول فيما يقول :

« فمن وافق القرآن ولم يتبع سنن رسول الله، عليه الصلاة والسلام، فهو مخالف للقرآن غير متبع له ، والمتابعة والاقتداء : هي الاسوة الحسنة

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٢١ .

برسول الله عليه الصلاة والسلام في جميع ما صح عنه من أخلاقه، وأفعاله وأحواله، وأوامره، ونواهيه، وندبه، وترغيبه، وترهيبه، الا ما قام الدليل على خلافه كقوله عز وجل : « خالصة لك من دون المؤمنين » وقول النبي عليه الصلاة والسلام في الوصال : لست كأحدكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث الاضحية لأبي بردة : اذبح ينار، ولا تجزى عن أحد بعدك ، وما يشبه ذلك مما يقوم عليه الدليل من نص الكتاب والآثار . فأما ما روي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحدود والاحكام والعبادات : من الفرائض والسنن والامر والنهي والاستحباب ، والرخص والتوسيع ، فذلك من أصول الدين وهو مدون عند العلماء والفقهاء ، ومستعمل فيما بينهم ومشهور عندهم ، لانهم الائمة الحافظون لحدود الله ، المتمسكون بسنن رسول الله عليه الصلاة والسلام . الناصرون لدين الله عز وجل يحفظون على الخلق دينهم ويبينون لهم الحلال من الحرام ، والحق والباطل فهم حجج الله تعالى على خلقه ، والدعاة له في دينه ، فهؤلاء هم الخاصة من العامة . فأما الخاصة من هؤلاء الخاصة : لما أحكموا الاصول ، وحفظوا الحدود ، وتمسكوا بهذه السنن ، ولم يبق عليهم من ذلك بقية ، استبحثوا أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم التي وردت في أنواع الطاعات ، والآداب ، والعبادات ، والاخلاق الشريفة ، والاحوال الرضية ، وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والاسوة به ، واقتفاء أثره بما بلغهم من آدابه ، وأخلاقه ، وأفعاله ، وأحواله فعظموا ما عظم ، وصغّروا ما صغر ، وقللوا ما قلل ، وكثروا ما كثر . وكرهوا ما كره واختاروا ما اختار ، وتركوا ما ترك ، وصبروا على ما صبر ، وعادوا من عادى ، ووالوا من والى ، وفضلوا من فضل ، ورغبوا فيما رغب ، وحذروا ما حذر ، لأن عائشة رضي الله عنها ، سئلت عن خلق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ فقالت كان خلقه القرآن ، تعني موافقة القرآن . وروي

عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : بعثت بمكارم الاخلاق » .



ان الغرور قد يدفع الانسان الغبي الى التنكر للحق ، والبعد عن الاستقامة ، وكأنه يريد بغروره أو طغيانه أن يثبت ذاته بطريق المخالفة ولو الى الباطل وقديما قيل لمثله من السفهاء « خالف تعرف » ، والاتباع للحق ، والاقتداء في مجال الصدق من شيم الاقوياء الذين يعرفون الحق فيتبعونه ، ويعرفون الباطل فيجتنبونه ، ولا يرون في الرجوع الى الحق أي غضاضة ، ولذلك ينبغي للمؤمن أن يحرص على فضيلة الاتباع وأن يحذر رذيلة الابتداع ، ان الله وحده هو الهادي الى سواء السبيل .

الهجــرة

قد يبدو غريبا عند بعض الناس أن نعدّ « الهجرة » من « أخلاق القرآن » ، لأن ما يتبادر الى أذهانهم عند سماع كلمة « الهجرة » هو ذلك الحادث التاريخي الاسلامي الذي تمثل في انتقال المسلمين من مكة الى المدينة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد تلحظ أذهانهم من كلمة « الهجرة » معنى الانتقال الحسي من مكان الى مكان ، مع ان هناك معنى أخلاقيا روحيا لكلمة « الهجرة » هو الذي يعطيها الحق في أن نسلكها ضمن أخلاق القرآن كما سيتضح لنا ذلك باذن الله من خلال البحث .

الهجرة معناها في اللغة الانتقال من موضع الى موضع ، وقصد ترك الاول ايثارا للثاني ، والهجران مفارقة الانسان غيره اما بالبدن أو باللسان أو بالقلب ، والمفارقة بالقلب تدخل نطاق الهجرة بالمعنى الاخلاقي كما سنرى بعد قليل . والمهاجرة في الاصل مصارمة الغير وتركه . والظاهر من الهجرة في عرف الاسلام هو الخروج من دار الكفر الى دار الايمان، وقيل : ان مقتضى ذلك هجران الشهوات والرذائل والاخلاق الذميمة والخطايا وتركها ورفضها ، وهذا هو المعنى الاخلاقي للهجرة .

والهجرة أنواع :

١ ــ الهجرة من دار الحرب الى دار الاسلام وهي فرض على المسلم .

٢ ــ الهجرة بالخروج من أرض البدعة .

٣ ــ الهجرة من أرض غلب عليها الحرام .

٤ ــ الهجرة للفرار من الاذى في البدن .

٥ ــ الهجرة من خوف المرض في البلاد الوخمة .

٦ ــ الهجرة للفرار من الاذية في المال .

٧ ــ الهجرة لطلب الدين أو طلب الدنيا . وهنا أنواع : سفر لطلب العبرة، وسفر للحج ، وسفر للجهاد، وسفر للمعاش، وسفر للتجارة والكسب الزائد على القوت ، وسفر للمرابطة ، وسفر لزيارة الاخوان في الله تعالى .

ولقد كان المسلمون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة الى الهجرة أربعة أقسام :

١ ــ أهل الهجرة الاولى من مكة الى المدينة منذ هجرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى غزوة بدر ، وهؤلاء هم أحسن قسم ، وهو الافضل والاكمل ، وأهله هم السابقون .

٢ ــ الانصار ، أهل المدينة ، والهجرة قد كانت الى دارهم ، ولهم فضلهم العظيم .

٣ ــ المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

٤ ــ المؤمنون الذين لم يهاجروا .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الاقسام في سورة الانفال حيث قال :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »[1] .

وقد أشار التنزيل المجيد الى مكانة المهاجرين وتقدمهم على غيرهم ، والبشرى التي يبشرها بها ربهم ، والثواب العظيم الـذي يلاقيهم في دار النعيم فقال الله عز شأنه في سورة التوبة :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ،

(١) سورة الانفال ، الآية ٧٢ ـ ٧٥ .

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ ، خَالِدِينَ فيها أَبَداً إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (١) .

ولقد تشعب رأي الفقهاء في حكم الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام ، وقد تحدث تفسير « المنار » فقال : « وقد اختلف الفقهاء في حكم الهجرة من بلاد الكفر الى بلاد الاسلام في مثل عصرنا هذا ويؤخذ من علة وجوب الهجرة في عهد التشريع أنها تجب بمثل تلك العلة في كل زمان ومكان ، فلا يجوز لمؤمن أن يقيم في بلاد يفتن فيها عن دينه ، بأن يؤذى اذا صرح باعتقاده أو عمل بما يجب عليه ، وان كان حكام تلك البلاد من صنف المسلمين ، ومن ذلك أن لا يقدر المسلمون على التصريح قولا وكتابة بكل ما يعتقدون ، ولا يمكنوا من القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجمع عليه منهما » .

ويرى الاستاذ الامام محمد عبده أنه لا معنى للخلاف في وجوب الهجرة من الارض التي يمنع فيها المؤمن من العمل بدينه ، أو يؤذى فيه ايذاء لا يقدر على احتماله ، وأما المقيم في دار الكافرين ، ولكنه لا يمنع ولا يؤذى اذا هو عمل بدينه ، بل يمكنه أن يقيم جميع أحكامه بلا نكير ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، بل ربما كانت الاقامة في دار الكفر سببا لظهور محاسن الاسلام واقبال الناس عليه .

وكان هذا الكلام بمناسبة التعرض لقول الله تعالى في سورة النساء:

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَم

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٠ ــ ٢٢

تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فيها فأُولئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ، إِلَّا المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ولا يَهتدُون سَبيلاً ، فأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً ، وَمَنْ يُهاجِرْ في سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً »[1] .

والهجرة بمعنييها الحسي والاخلاقي شيمة الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . لقد هاجروا هجرة أخلاقية روحية حين صدوا عن رذائل أقوامهم وقبائح شعوبهم وسيئات أممهم ، وهجروهم فلم يشاركوهم سيئة من السيئات ولا منكرا من المنكرات ، بل هاجروا الى ربهم حتى عندما كانوا مقيمين بين أقوامهم ، وهاجر الانبياء كذلك الهجرة الحسية من مكان الى مكان ، فهاجر ابراهيم ، وهاجر لوط ، وهاجر موسى ، وهاجر عيسى ، وهاجر خاتمهم محمد عليهم جميعا صلوات الله وسلامه .

ومن باب الهجرة الاخلاقية الروحية قول الله تبارك وتعالى في سورة المدثر :

« وَالرُّجْزَ فاهْجُرْ »[2] .

أي والمآثم فاترك ، أي اترك المعصية ، وهذا حث على مفارقة ما لا

---

(١) سورة النساء ، الآية ٩٧ ــ ١٠٠ .
(٢) سورة المدثر ، الآية ٥ .

يليق بالوجوه كلها : بالبدن واللسان والقلب . وقد جاء في كتاب « ظلال القرآن » ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة ، فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف وهذا الركام من المعتقدات الشائهة ، وذلك الرجس من الاخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية .

ولكن هذا التوجيه يعني المفاضلة واعلان التميز الذي لا صلح فيه ولا هوادة ، فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان ، كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز . وهذه هجرة أخلاقية كما هو واضح ، وقيل ان الرجز هو المعاصي أو الشيطان . ويقال ان المعنى هنا هو طهر قلبك من الخطايا واشغال الدنيا . وقد قيل من لا يصح جسمه لا يجد شهوة الطعام ، وكذلك من لا يصح قلبه لا يجد حلاوة الطاعة .

ومن شواهد الهجرة الأخلاقية قول الله تبارك وتعالى :

« فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »[1] .

ونعود الى « ظلال القرآن » لنجده يتلبث أمام هذه الآية ليقول : « ونقف أمام قولة لوط : « اني مهاجر الى ربي » لنرى فيم هاجر . انه لم يهاجر للنجاة ، ولم يهاجر الى أرض أو كسب أو تجارة . انما هاجر الى ربه، هاجر متقربا له ملتجئا الى حماه ، هاجر اليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه . هاجر اليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ، ويخلص له كيانه كله في مهجره ، بعيدا عن موطن الكفر والضلال ، بعد أن لم يبق

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٢٦ .

رجاء في أن يفيء القوم الى الهدى والايمان بحال » .

* * *

ونتنقل الى روضة السنة النبوية لنجدها تحدثنا عن الهجرة الاخلاقية الروحية فيقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . فالمسلم يلزمه أن يهاجر بقلبه وطباعه وسلوكه حتى ولو لم يبرح داره كما قالت الرواية الاخرى للحديث : « المهاجر من هجر ما حرم الله عليه » . وقد عدّ الفقهاء من هذا القبيل هجرة المسلم أهل المعاصي حتى يثوبوا ويرجعوا عن غيّهم تأديبا لهم فالمسلمون لا يخالطون هؤلاء الفساق حتى يتوبوا .

وقد جاء في الحديث الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » . أي ان الهجرة الحسية من مكة الى المدينة قد انتهت بفتح مكة وانتصار المسلمين ، ولكن الهجرة الروحية الاخلاقية باقية ، وهي قائمة على المجاهدة واخلاص النية .

ولقد جاء في مسند الامام أحمد بن حنبل :

ما الهجرة ؟ .

ـ تهجر السوء .

وقد روى أبو داود :

ـ أي الهجرة أفضل ؟.

ـ أن تهجر ما حرّم الله عليك .

وحينما تحدث ابن الاثير في كتابه « النهاية » عن الحديث : « لا

هجرة بعد ثلاث » قال : « يريد به الهجر بعد الوصل ، يعني فيما يكون بين المسلمين من عتب وموجدة ، أو تقصير يقع في حقوق العشرة والصحبة ، دون ما كان من ذلك في جانب الدين ، فان هجرة أهل الاهواء والبدع دائمة على مرّ الاوقات ، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع الى الحق ، فانه صلى الله عليه وسلم لما خاف على كعب بن مالك وأصحابه النفاق ، حين تخلفوا عن غزوة تبوك ، أمر بهجرانهم خمسين يوما ، وقد هجر نساءه شهرا ، وهجرت عائشة ابن الزبير مدة وهجر جماعة من الصحابة جماعة منهم وماتوا .

وقد جاء في السنة الحديث القائل : « هاجروا ولا تهجروا » أي كونوا من المهاجرين حقيقة ، ولا تتشبهوا بهم في القول دون العمل ، وهذا يؤكد لنا أن الهجرة عمادها النية وثبات الاخلاق التي تدفع صاحبها باصالتها وكرمها الى أن يكون قدوة سليمة قويمة في هجرته ، سواء أكانت هجرة حسية تتمثل في الانتقال من مكان الى مكان ، أم كانت هجرة أخلاقية عمادها تجنب ما حرّم الله والانتهاء عما نهى عنه .

وقد يبدو لبعض قصار النظر أن الهجرة يسيرة في الاتيان بها ، فهي لا تحتاج الا الى الانتقال من أرض الى أرض مع أنه جاء في صحيح البخاري الحديث القائل : « ان شأن الهجرة لشديد » . ويفهم الانسان فيما يفهم أن الهجرة تكون شديدة على الانسان ، ولو كانت مجرد هجرة حسية لأن الهجرة ترك للوطن والأهل والسكن والمعارف والاقارب والاصدقاء ، وليس من المستطاع الميسور احتمال هذا على كل انسان . فاذا كانت الهجرة معنوية روحية أخلاقية كانت الشدة فيها أوضح وأظهر ، لأن الهجرة المعنوية تحتاج الى عزم الرجال وهمم الابطال ، وهم في هذا المجال يتمردون على مألوف العادات ومرغوب الشهوات ومحبوب اللذات، وهذا مرتقى صعب لا يقدر عليه الا أصحاب الهمم العالية من الناس .

ولو التفتنا الى الصوفية وهم يتحدثون بطريقتهم الخاصة واسلوبهم المتميز لوجدناهم يعطون الهجرة منزلة خاصة عاليـة ، فحـين يتحـدث القشيري عن قوله تبارك وتعالى « فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي » يصور معنى هذا بأسلوبه الخاص به وبطائفته فيقول : « لا تصح الهجرة الى الله الا بالتبري ــ بالكمال ــ بالقلب من غير الله ، والهجرة بالنفس يسيرة بالاضافة الى هجرة القلب وهي هجرة الخواص ، وهي الخروج من أوطان التفرقة الى ساحات الجمع ، والجمع بين التعريج في أوطان التفرقة والكون في مشاهد الجمع متناف .

ويحاول القشيري أن يشرح ذلك بطريقته فيذكر أن ما يكون كسبا للعبد وما يليق بأحوال البشرية فهو مزق ، وما يكون من قبل الحق مـن ابداء معان ، واسداء لطف واحسان ، فهو جمع ، فاثبات الخلق من باب التفرقة ، واثبات الحق من باب الجمع .

هكذا يقولون ويعبرون ، وهو أسلوب خاص بهم مقصور عليهم .

ويقول الله تعالى في سورة المزمل :

« وَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً » (1) .

قيل ان الهجر الجميل أن تعاشرهم بظاهرك وتباينهم بسرك وقلبك وقيل الهجر الجميل ما يكون لحق ربك لا لحـظ نفسك . وفي تفسـير « مفاتيح الغيب » : المعنى انك لما اتخذتني وكيلا كان عليك أن تصبر على ما يقولون ، وأن تفوض أمرهم الي ، فانني لما كنت وكيلا لك كنت أقدر على اصلاح أمرك منك لقيامك باصلاح أمور نفسك ... والانسان اما أن يكون مخالطا للناس أو مجانبا عنهم ، فان خالطهم فلا بد له من المصابرة

---

(1) سورة المزمل ، الآية ١٠ .

على ايذائهم وثبت أن من أراد المخالطة مع الخلق فلا بد لــه مــن الصبر الكثير ، وان ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميـــل ، والهجر الجميـــل هو أن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم في الافعال والاعمال .

على أن هناك نوعا من الهجرة يحرمه الاسلام ويقاومـــه ، وهـــو أن يهجر المسلم أخاه في الله لغير ضرورة ، وقد أشار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذا النوع المحرم من الهجرة حـــين قـــال : « لا يحـــل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

نسأل الله جل جلاله أن يوفقنا الى ما يرضـــاه لنا من هجرة حســـية وهجرة روحية نعتصم فيها بحبله القوي المتين ، وتتحـــلى فيهـــا بمكـــارم الاخلاق ، انه نعم المولى ونعم المجيب .

الاسلام

قد يبدو غريبا أن نتحدث عن « الاسلام » على أنه خلق من أخلاق القرآن ، لأن العادة جرت على أن الاسلام هو ذلك الدين المعروف الذي جاء به رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الاسلام له معنى أخلاقي روحي عام يصح أن يدخل به نطاق أخلاق القرآن على أنه فضيلة من الفضائل التي يتحلى بها الانسان المؤمن ، ونستطيع أن نفهم ذلك بوضوح اذا عرفنا معنى كلمة «الاسلام» .

الاسلام من مادة السلامة وهي التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، والسلامة الحقيقية ليست الا في الجنة ، اذ فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقم ، ولذلك قال القرآن الكريم :

« لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (١) .

والسلام هو الدخول في السلم ، والاسلام هو الانقياد لأمر الله تعالى بالخضوع والاقرار بجميع ما أوجب ، وقد يطلق الاسلام بمعنى الاخلاص ، وقد قال زيد بن عمرو بن نفيل :

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٢٧ .

أسـلمت وجهي لمن أسلمت له الارض تحمل صخرا ثقالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمـل عـذبا زلالا

والاسلام في الشرع على ضربين : أحـدهما دون الايمـان ، وهـو الاعتراف باللسان وبه يحقن دم الانسان ، حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل، وهو المقصود بقوله تعالى :

« قَالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » (١) .

والثاني فوق الايمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلـب ووفاء بالعمل ، واستسلام لله تعالى في جميع ما قضى وقدّر ، كما ذكر عن ابراهيم عليه السلام في قول القرآن :

« إِذْ قالَ لَـهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ» (٢) .

والاسلام بمعنى الانقياد لله ، والخضوع المطلق لأوامره ، خلق من أخلاق القرآن ، وفضيلة من فضائل الاسلام ، وتاج الهدى في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ولذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة :

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْباطِ وما أُوتِيَ مُوسَى وعِيسى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمون » (٣) .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٣٦ .

أي مذعنون لأمــر الله ، منقــادون لحكمــه ، لا تتبــع الهوى أو الشيطان أو الناس .

وفي سورة آل عمران يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« فإنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَن اتَّبَعَنِي » (١) .

أي انقدت لامر الله في اخلاص التوحيد له ، وأعرضت عن كل معبود سواه وأخلصت قصدي بالعبادة اليه ، أنا ومن اتبعني من المؤمنين ، ولا ينبغي أن أضيع الوقت سدى في الجدال والمراء بعد أن تبين الحق :

« وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إِنَّ الباطِلَ كانَ زَهوقاً » (٢) .

والاسلام بهذا المعنى الروحي القلبي هو من أخلاق الانبياء والمرسلين فهذا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت ويقولان: « ربنا اجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » . فأهل التفسير يذكرون هنــا أن المسلم هو المنقاد الخاضع ، والمراد بالكلمة ما يشمل التوحيد والاخلاص لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعا ، والاخلاص في الاعتقاد هو أن لا يتوجه المسلم بقلبه الا الى الله ، ولا يستعين بأحد ــ فيما وراء الاسباب الظاهرة ــ الا باللــه .

والاخلاص في العمل هو أن يقصد بعمله مرضاة الله تعالى ، لا ارضاء الشهوة ولا اتباع الهوى .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٠ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٨١ .

والله تعالى انما يرضيه منا أن نزكي نفوسنا بمكارم الاخلاق ونثقف عقولنا بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبرهان وبهذا نكون محل عناية الله تعالى ، ومستودع معرفته وموضع كرامته .

وأما الذي يقصد بأعماله ارضاء شهوته واتباع هواه ، فانه لا يزيد نفسه الا جبنا ، ويكون بعيدا عن المعنى الجليل الاصيل للاسلام ، والله تعالى يقول :

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً » (١) .

ويقول القرآن في سورة آل عمران : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أي كان مخلصا لربه الطاعة والاذعان والخضوع ، فابراهيم المتفق على اجلاله عند أهل الملل الثلاث لم يكن على ملة واحد منهم بل كان ــ كما يذكر تفسير المنار ــ مائلا عن مثل ما هم عليه من الوثنية والتقاليد ، مسلما خالصا لله تعالى ، وليس المراد بكونه مسلما أنه كان على مثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الشريعة بالتفصيل ، وانما المراد أنه كان متحققا بمعنى الاسلام الذي هو التوحيد والاخلاص لله في عمل الخير .

ويقول القرآن في سورة البقرة :

« وَوَصَّى بها إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » (٢) .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣٢ .

أي ان الله اختار لكم دين الاسلام القائم على أساس التوحيد والاخلاص والانقياد ، فلا تتركوا الاسلام فيصادفكم الموت وأنتم تاركون له بل الزموا الاسلام دائما ، فاذا أدرككم الموت صادفكم مسلمين ، وأنتم مذعنون خاضعون منقادون لأمره ونهيه ، وخلاصة هذه العقيدة كما يرى الاستاذ الامام ــ هي اسلام القلب لله تعالى والاخلاص له ، فدين الله واحد في حقيقته وروحه ومعناه الاستسلام لله تعالى والخضوع والاذعان لهداية الاسلام ولذلك قال الله تعالى :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فيهِ »[1] .

فالتفرق في الدين انما جاء من الجهل والتعصب للاهواء ، والمحافظة على المنافع المتبادلة بين المرؤوسين والرؤساء ، والقرآن يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على أصله العقلي وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبي وهو الاسلام والاخلاص لله في جميع الاحوال ، ومن لم يكن متحققا بهذا المعنى فليس بمسلم ، أي ليس على دين الله القيّم الذي كان عليه جميع أنبياء الله تعالى ، ويقول القرآن الكريم في سورة يوسف على لسان يوسف عليه السلام :

« ربِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تأْويلِ الأَحاديثِ فاطِرَ السّماواتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ في الدُّنْيا

---

(١) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ » [١] .

أي اجعلني ممن استسلم لرضاك ، واجعلني سالما من أسر الشيطان .

ويقول الذكر الحكيم في سورة البقرة :

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » [٢] .

أي من سلك مرضاة الله واتجه بوجهه الى طاعته ، وفوّض أمره اليه وانقاد له وخضع ، فله جزاء عمله الطيب عند الله ولا يناله خوف ولا حزن في الآخرة ، ومن الواضح ان الاسلام هنا لا يراد به أحكام دين بعينه ، بل يراد به الاسلام الاخلاقي الروحي القائم على الانقياد والاخلاص ، وهذا معنى طالب الله به عباده المؤمنين في كل الازمان والاديان ولعل هذا ما ينظر اليه قول الله تعالى في سورة آل عمران :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسلامُ » [٣] .

وقد جاء في تفسير « ظلال القرآن » تعليق على هذه العبارة القرآنية الحكيمة جاء فيه :

« ألوهية واحدة ، واذن فدينونة واحدة .. واستسلام لهذه الالوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله .. ألوهية واحدة .. واذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها ، وفي تطويعهم لأمرها ، وفي انفاذ شريعتها فيهم وحكمها ، وفي وضع القيم

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٢ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

والموازين لهم وأمرهم باتباعها ، وفي اقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها ..

ألوهية واحدة .. واذن فعقيدة واحدة هي التي يرضاها الله من عباده . عقيدة التوحيد الخالص الناصع ومقتضيات التوحيد هذه التي أسلفنا : « ان الدين عند الله الاسلام » .

الاسلام الذي هو ليس مجرد دعوى . وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ، ولا حتى تصورا يشتمل عليه القلب في سكون، ولا شعائر فردية يؤديها الافراد في الصلاة والحج والصيام .. لا . فهذا ليس بالدين الذي لا يرضى الله من الناس دينا سواه انما الاسلام الاستسلام . الاسلام الطاعة والاتباع . الاسلام تحكيم كتاب الله في أمور العباد .. كما سيجيء في السياق القرآني ذاته بعد قليل . والاسلام توحيد الالوهية والقوامة .. بينما كان أهل الكتاب يخلطون بين ذات الله سبحانه وذات المسيح عليه السلام كما يخلطون بين ارادة الله وارادة المسيح أيضا. ويختلفون فيما بينهم على هذه التصورات اختلافا عنيفا يصل في أحيان كثيرة الى حد القتل والقتال .. هنا يبين الله لاهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف : « وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم . بغيا بينهم » .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :

« قلْ آمَنَّا باللهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَما أُنْزِلَ على إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْباطِ وما أُوتيَ مُوسى وعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ » [1] .

فقوله « ونحن له مسلمون » أي منقادون بالرضا والاخلاص ، منصرفون عن أهوائنا وشهواتنا ، لا نتخذ الدين لاجل حظوظ الدنيا ، وانما نبتغي به التقرب الى الله تعالى ، باصلاح النفوس واخلاص القلوب والصعود بالارواح الى سماء الكرامة والفلاح ، ولما كان هذا هو الاسلام الديني الذي كان عليه جميع الانبياء ، أتبع ذلك بقوله :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » [2] .

لأن الدين اذا لم يكن هو الاسلام الذي أوضحنا معناه ، فما هو ــ كما يذكر تفسير المنار ــ الا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية وآلة للعصبية ، ووسيلة للمنافع الدنيوية . وذلك مما يزيد القلوب فساداً والارواح اظلاما فلا يزيد الناس في الدنيا الى عدوانا ، وفي الآخرة الا خسرانا ولذلك قال : « وهو في الآخرة من الخاسرين » أي يكون هناك خاسرا للنعيم المقيم ، في جوار الرب الرحيم ، لأنه خسر نفسه اذ لم يزكها بالاسلام واخلاص السريرة له جل علاه .

وقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » يؤيد قوله تعالى :

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ » [3] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨٥ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩ .

لأن هذا التعبير يتناول جميع الملل التي جاء بها الانبياء والمرسلون ، لأن الاسلام بمعنى الانقياد الخالص لله هو الروح الكلي لهذه الملل ، ولأنه الاساس الذي اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف وصور الاعمال ، فالمسلم الحقيقي في حكم القرآن هو من كان خالصا من شوائب الشرك بالرحمن ، مخلصا في أعماله مع الايمان في أي زمان أو مكان لأن الله تعالى شرع الدين لأمرين أصليين أحدهما تصفية الارواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات وقدرتها على التصرف في الكائنات ، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها . أو لما هو دونها في استعدادها . وثانيهما اصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الاعمال ، واخلاص النية لله وللناس .

فمتى حصل هذان الأمران انطلقت الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كمالها في أفرادها وجماعاتها .

وهذان الامران هما روح المراد من كلمة الاسلام ، وأما أعمال العبادات فانما شرعت لتربية هذا الروح الامري في الروح الخلقي ، ولذلك يشترط فيها النية والاخلاص ، ومتى تربى هذا الروح سهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الادبية والمدنية التي يصل بها الى المدينة الفاضلة وتحقيق أمنية الحكماء .

ولو أننا رجعنا الى روضة السنة المطهرة لوجدنا المعنى القلبي الاخلاقي لكلمة الاسلام موجودا في مواضع منها ففي البخاري نجد من دعوات النبوة : « اللهم لك أسلمت » وفي رواية : « اللهم أسلمت نفسي اليك » وهذا التعبير معنى الاستسلام والانقياد لأمر الله والخضوع لمشيئته . وقد جاء في مسند ابن حنبل : « لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه » أي أن يكون قلب الانسان خالصا لربه منقادا لأمره ، لا يشغله سواه .

نسأل الله جل جلاله أن يجملنا بفضيلة الاستسلام اليه ونعمة الانقياد لأمره ، ويجعلنا ممن يعتصمون بحبله القوي المتين ، فنزدان بالاسلام فضيلة وخلقا ، ونستمسك بالإسلام شريعة ودينا ، وعلى الله قصد السبيل.

التعاون

تذكر اللغة أن التعاون هو تبادل المعونة . يقال : تعاونوا واعتونوا . ومادة « العون » تدل في أصلها اللغوي على القوة والفائدة . والعون هو الظهير على الامر المقوّى عليه ، والاستعانة طلب المعونة . والعون المعاونة والمظاهرة ، يقال : فلان عوني أي معيني .

والتعاون خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم .

واذا نظرنا الى طبيعة الانسان وطريقته في الحياة رأينا أنه مدني بطبعه ، أي أنه اجتماعي بفطرته ، ويصعب عليه أن يعيش منفردا عن غيره من بني جنسه ، ولا يستطيع أن يقوم منفردا بكل مطالب الحياة ، ولعل هذا هو الذي جعل الانسان يحاول منذ فجر التاريخ البشري أن يلجأ الى منظمات متوالية لتحقيق هذا التعاون ، فبدأ بالاسرة ، وانتقل الى القبيلة ثم الدولة ثم منظمات أخرى .

وقد ينظر كثير من الناس الى التعاون على أنه نظام اقتصادي مادي فقط ، ولكن الاسلام ينظر اليه على أنه أصل من أصول الدين ، ومبدأ من مبادئه ، وأنه نظام يساعد على الخير ، وأنه خلق يثاب عليه أهلوه ، وأنه

فضيلة ترفع صاحبها الى درجة الاخيار من عباد الله .

ومن مكانة التعاون العليا ان من صفات الله تعالى أنه « المستعان » ، فذلك حيث يقول القرآن الكريم في سورة يوسف :

« وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلى ما تَصِفُونَ »[1] .

أي هو الله الواحد القادر الذي يلجأ اليه الناس ليطلبوا منه العون على ما لا يقدرون عليه من متاعب الحياة أو بغي الاحياء .

ولأمر ما ولحكمة بالغة جعل الله عباده المؤمنين يتذكرون على الدوام أن يسألوه المعونة ، وأن يخصوه برجاء العون منه ، لأنه سبحانه يقدر على ما لا يقدر عليه سواه ، فشرع لهم أن يقولوا في كل صلاة من كل يوم :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ »[2] .

ولعلوّ مكانة التعاون المادي والادبي نجد القرآن الكريم يقول في سورة المائدة :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ »[3] .

انه سبحانه قد قال : « وتعاونوا » فاستعمل صيغة الامر العام ، ولم يكتف بذكر جواز التعاون أو اباحته ، بل أوجبه وطالب به ، وهو قد وجه الخطاب في هذا الامر الى الجميع والى كل القادرين على تحقيق المطلـوب،

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٨ .
(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٢ .

فلم يجعل الامر مقصورا على طائفة من الناس دون طائفة ، بل جعل المطالبة موجهة الى الجميع ، وهذا يفيد وجوب شمول التعاون للمجتمع وأبنائه . وهو يوجه التعاون ليكون في الاغراض الطيبة الطاهرة النافعة للفرد والجماعة ، فذكر « البر والتقوى » موضعين لهذا التعاون ، والبر هو التوسع في فعل الخير والعمل الصالح ، والتقوى هي اتقاء كل ما يضر الفرد أو الجماعة في الدين والدنيا ، وفي الحسيات والمعنويات .

وهو يحذر أن يكون التعاون على باطل أو اثم أو ضرر ، فنهى أن يكون التعاون على الاثم والعدوان ، والاثم هو كل فعل قبيح لا ترتضيه العقول السليمة ، ولا تقبله النفوس القويمة ، والعدوان هو تجاوز حدود الشرع والعرف الصحيح في المعاملة .

ولو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدناه يعرض علينا صورا تعاونية لها قيمتها ، تؤكد في نفوسنا أن الحياة لا تستقر الا بالتعاون ، فهاهوذا يحدثنا مثلا عن « ذي القرنين » فيذكر لنا ان الله تبارك وتعالى قد مكَّن له في الارض ، وآتاه من كل شيء سببا ، فتوافرت له القدرة والسلطة ، وتهيأت أمامه أسباب للقوة والنفوذ لم تتوافر لكثير غيره ، والقرآن يقول عنه في سورة الكهف :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ، وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً » [1] .

ومع ذلك لم يستغن ذو القرنين عن معونة غيره حينما أراد أن يقوم بعمل كبير ، وهاهوذا القرآن يعود فيحدثنا عن ذي القرنين قائلا :

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٨٣ و٨٤ .

« حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ، قالُوا ياذا القَرْنَيْنِ إِنَّ يأْجُوجَ ومأْجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً »[1] ؟

فصارحهم بأن مثل هذا العمل الكبير يحتـاج الى التعـاون ولا يتم دونه ، قال : « ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتوني زبر الحديد (أي قطع الحديد الكبيرة) حتى اذا سـاوى بين الصدفين (أي جانبي الجبلين وهما السدّان) قـال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا » أي نحاسا مذابا .

فماذا كانت نتيجة هذا التعاون العظيم ؟

كانت نتيجته اتمام عمل عظيم ، وهو سد منيع ، لا يستطيع مهاجموه أن يعلوا ظهره ، ولا أن يحدثوا فيه خرقا . يقول القرآن الكريم في ذلك :

« فمااسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَما اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً » .

ونفهم هنا أن القرآن المجيد يرمز الى أن التعاون اذا أخلص له أهلوه، وبذلوا فيه بصدق ما استطاعوا حقق لهم من النتائج مـا يكفي ويشفي ، كما يرمز الى فضيلة التذكر لنعمة الله بين المتعاونين ، حتى يمنحهم عنايتـه ورعايته ، وحتى يكون هذا الشعور الديني الخالص معوانا على البلـوغ بالتعاون الى أهدافه الجليلة الشريفة .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٩٣ و٩٤ .
(٢) سورة الكهف ، الآية ٩٧ .

ويعرض علينا القرآن الكريم صورة أخرى للتعاون تتعلق برسولين من رسله ، هما موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ، فعلى الرغم من أن موسى نبي ورسول لم يتردد أن يطلب من ربه أن يحقق لـه عـن طـريق التعاون مزيدا من القوة ، حتى يستطيع اداء الرسالة على الوجه الطـيب ، ولذلك قال يدعو ربه تبارك وتعالى :

« واجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي أشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وأَشْرِكْهُ في أَمْرِي »(١) .

والقرآن المجيد يقرر أن التعاون كما يكون في وقت السلم يلـزم أن يكون في وقت الحرب ولذلك يقول في سورة الصف :

« إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيانٌ مَرْصُوصٌ »(٢) .

ولا يتحقق الصف الا بالتجمع والترابـط والتعـاون ، والبنيـان المرصوص هو المتلاصق المحكم ، ولا يتم هذا الا بتعاون وثيق .

* * *

ثم نتأتى الى سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

اننا نجد في هذه السنة الكريمة المطهرة فيضا عظيما من النصوص الداعية الى التعاون النبيل المصطبغ بصبغة الايمان والاعتقاد ، ومن هذه الاحاديث قوله صلوات الله وسلامه عليه :

١ ــ الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

٢ ــ الناس بخير ما تعاونوا .

---

(١) سورة طه ، الآية ٢٩ ــ ٣٢ .

(٢) سورة الصف ، الآية ٤ .

٣ ــ من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .
٤ ــ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .
٥ ــ مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وكل حديث من هذه الاحاديث الشريفة نستطيع أن نقف أمامه وقفة تأمل ، نحلل معناه ونتدبر مغزاه لنخرج بمزيد من التأكيد بمكانة التعاون في نظر الاسلام .

وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحرص على التذكير بالتعاون في الخير ، وطلب المعونة من الله تبارك وتعالى فكان من دعواته : « رب أعنّي ولا تعن عليّ » كما كان من فواتح خطبه صلى الله عليه وسلم في كثير من الاحيان قوله : « نحمد الله ونستعينه » .

وكان من وصف السيدة خديجة رضي الله عنها للرسول عليه الصلاة والسلام قولها كما روى البخاري : « كان يعين على نوائب الحق » وهي ما ينوب الانسان أي ينزل به من المهمات والحوادث .

كما أشار الرسول الى أن مظاهر التعاون متنوعة ، فذكر من أنواع الصدقات قوله : « وتعين الرجل على دابته فتحمل عليها صدقة » وقال كذلك : « وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة » كما أشار الرسول الى أن من أدب الاسلام أن يعين الرجل خادمه في أداء ما يشق عليه من عمل فقال للسادة عن الخدم : « فان كلفتموهم ما لا يطيقون فأعينوهم عليه » .

وفوق هذا نجد رسول الله عليه الصلاة والسلام يصور لنا سلسلة النبوات والرسالات على أنها طراز رفيع مجيد من التعاون على نشر دين الله ودعوته بين البشر خلال عصور التاريخ ، وكل رسول يبني جزءا يمهد به لجزء مقبل ، ويأتي رسول من بعده فينتفع بسابق البناء ويضيف اليه ، وهكذا حتى يتم البناء بالرسالة الخاتمة الجامعة : رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

يقول النبي في ذلك : « ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله ، الا موضع لبنة (أي حجر) من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟. فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .



ولقد شهد تاريخ الاسلام في صدره الاول مواقف عملية تجلى فيها تطبيق التعاون في المجتمع الاسلامي ، فكان من وراء ذلك خير وبر ، فالهجرة مثلا اشترك فيها كهول مثل النبي وأبي بكر ، وشباب كعلي وعبدالله بن أبي بكر ، ونساء كزوجة أبي بكر ، وفتيات كأسماء وعائشة ابنتي أبي بكر ، وأسهم كل واحد منهم بمجهود ، فأبو بكر أعد العدّة وسيلة الانتقال ، بعد أن رسم النبي الخطة وحدد لها الميقات ، وعلي رقد على سرير النبي ليظن المشركون أن النبي ما زال موجودا في فراشه ، وزوجة أبي بكر تعد الطعام مع ابنتيها ، وأسماء تحمل الزاد والماء الى الغار.

وعقب الهجرة شرع المسلمون في بناء مسجد الرسول بالمدينة ، ولقد تم في أقصر مدة ممكنة ، ولولا تعاون الايدي المؤمنة في جمع المواد ، وتهيئة الوسائل ، وتشييد البناء ، لما تمّ المسجد بهذه السرعة التي كانت ثمرة من ثمرات التعاون .

وفي غزوة الاحزاب أراد المسلمون حفر الخندق حول المدينة ، من الجهة التي لا تحصنها جبال ، وكان الوقت ضيقا ، وكانت الاحزاب تتقدم نحو المدينة بسرعة ، ولكن التعاون جاء فحل المشكلة ، واشترك الجميع في العمل ، واستطاع المؤمنون بتعاونهم الكريم أن يتموا حفر الخندق الطويل ، قبل أن تصل جموع الاعداء المشركين .

ولقد حدث أن ارتحل النبي صلى الله عليه وسلم مع جماعة من

أصحابه ، وفي أثناء الرحلة أرادوا أن يهيئوا شاة لطعامهم ، فقال أحد الصحابة : عليّ ذبح الشاة .

وقال الثاني : وعليّ سلخها .

وقال الثالث : وعليّ طبخها .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : وأنا عليّ جمع الحطب .

فقال له أصحابه : يا رسول الله نحن نكفيك ذلك .

فقال : أنا أعلم أنكم تكفونني ، ولكني لا أحب أن أتميز عليكم ، فان الله تعالى لا يحب من عبده أن يتميز على أصحابه .

وفي غزوة بدر ، وهي أولى الغزوات في الاسلام ، دعت الظروف المسلمين الى أن يشترك كل ثلاثة منهم في ركوب دابة بالتناوب ، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم شريكان في دابته ، فقالا له : نحن نمشي مكانك ، وأنت تركب مكاننا يا رسول الله .

فأبى النبي ذلك وقال : ما أنتما بأقوى مني على المشي ، ولا أنا بأغنى منكما على الاجر .

وتعاون الجميع في الركوب ، كل منهم يركب نصيبه من الطريق ، ويترك لصاحبيه نصيبهما .



ومن المعلوم أن التعاون يقوم على أساس أن الفرد جزء من كل ، ولبنة في بناء ، ولذلك شاع بين الناس ذلك القول التعاوني المعروف : الفرد للمجموع ، والمجموع في خدمة الفرد . والاسلام يقيم لهذا الاساس وزنا كبيرا ، فالقرآن يقول :

« إِنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (١) .

والحديث يقول كما عرفنا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضـــا ».

والتعاون يقوم على روح الجماعة ، والاسلام يعنى بذلك كل العناية، فيقول القرآن :

« واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا » .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « يد الله مع الجماعة » وعلمنا القرآن أن روح الجماعـــة تكون حتى في العبـــادة ، ففي سورة الفاتحة نقول ونحن في الصلاة :

« اياك نعبد واياك نستعين » . ولا يقول المصلّي اياك أعبد وايـــاك استعين .

وجمع القرآن بين وحدة الامة وتقوى الله فقال :

« وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » (٢) .

* * *

ولقد أرشدنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن نحـــذر العون الخبيث المذموم ، فقد شاهد جماعة من أصحابه وهم يسبون رجلا ويسخرون منه ويهزأون به فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تعينوا عليه الشيطان » كما أنه حذر الاستعانة بالمشرك لأنه عـــدو المؤمنين ، فقـــال : « انا لا نستعين بمشرك » .

نسأل الله جل جلاله أن يمن علينا بنعمة التعاون على البر والتقوى ، وأن يحفظنا من بلوى التعاون على الاثم والعـــدوان انـــه أكرم مسؤول وأفضل مأمول .

---

(١) سوره الحجرات ، الآية ١٠ .

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥٢ .

القصد

القصد خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم . ولنعرف أولا معنى القصد في اللغة .

القصد في الشيء ضد الافراط ، وهو ما بين الاسراف والتقتير ، والقصد في المعيشة ألا يسرف ولا يقتر . وقصد الانسان في الامر : لم يتجاوز فيه الحد ، ورضي بالتوسط . وقصد في أمره اعتدل وسلك مسلكا بين المغالاة والتقصير ، أو بين الافراط والتفريط . والقصد هو سلوك الطريق المعتدلة . ولذلك قد يطلق عليه اسم الاعتدال ، وقد يسمى بالسداد ولذلك قالت اللغة العربية ان القصد بمعنى العدل . والقاصد هو القريب، ولذلك جاء في التنزيل المجيد :

« لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ » (١) .

أي سفرا غير شاق ولا متناهي البعد . ومما يدل على أن القصد يراد به استقامة الطريق قول الله تعالى :

« وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٢ .

أَجْمَعِينَ » [1] .

أي على الله تبيين الطريق المستقيم ، والدعاء اليه بالحجج والبراهين الواضحة ومنها طريق جائر غير قاصد .

وقد جاء في تاج العروس للزبيدي : سدده الله تعالى أي وفقه للسداد ، وهو الصواب والقصد من القول والعمل ، ويقال : انه لذو سداد في منطقه وتدبيره . والقصد بمعنى الاقتصاد أيضا ، ولذلك أضاف الزبيدي : من الاقتصاد ما هو ممدوح مطلقا ، وذلك فيما له طرفان :

افراط وتفريط ، كالجود فانه بين الاسراف والبخل ، وكالشجاعة فانها بين التهور والجبن ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » [2] .

ومنه ما هو متردد بين المحمود والمذموم ، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم ، كالواقع بين العدل والجور ، وعلى ذلك جاء قوله تعالى :

« فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » [3] .

وجاء قوله تعالى في سورة المائدة :

« مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ » [4]

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٦٧ .
(٣) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .
(٤) سورة المائدة ، الآية ٦٦ .

أي منهم فريق معتدل لا يشتط ولا يسرف ، والكثرة مفسدة ظالمة مسرفة ، وان كثيرا منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون .

وتفيد هذه الآية أن من أهل الكتاب أمة مقتصدة وهم المؤمنون ــ قيل كالنجاشي وسلمان وعبدالله بن سلام ــ اقتصدوا فلم يقولوا في عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ما لا يليق بهما . وقد جاء في تفسير « المنار » عن الآية الماضية قوله :

« منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » أي منهم جماعة معتدلة في أمر الدين ، لا تغلو بالافراط ولا تهمل بالتقصير . قيل هم العدول في دينهم ، وقيل هم الذين أسلموا منهم . والمعتدلون لا تخلو منهم أمة ، ولكنهم يكثرون في طور صلاح الامة وارتقائها ، ويقلون في طور فسادها وانحطاطها . وهل تهلك الامم الا بكثرة الذين يعملون السوء من الاشرار وقلة الذين يعملون الصالحات من الاخيار ، وهؤلاء المعتدلون في الامم هم الذين يسبقون الى كل صلاح واصلاح يقوم به المجددون من الانبياء في عصورهم ، ومن الحكماء في عصورهم ، ولما جاء الاصلاح الاسلامي على لسان خاتم النبيين والمرسلين صلى الله عليه وسلم قبله المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم ، فكانوا مع اخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب ، والمحيين للعلوم والفنون والعمران، فهل يعتبر المسلمون بذلك الآن ويعودون الى اقامة القرآن ، وأخذ الحكمة من حيث يجدونها ، وعدد الاصلاح والسيادة من حيث يرونها ، أم يفتأون يسلكون سنن من قبلهم في طور الفساد والافساد شبرا بشبر وذراعا بذراع ، ومنه الغرور بدينهم مع عدم اقامة كتابه والتبجح بفضائل نبيهم على تركهم لسننه وآدابه » .

ومن مواطن ذكر فضيلة القصد في القرآن الكريم ما جاء في سورة النحل في قوله تبارك وتعالى :

« وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ » (١) .

والسبيل القاصد كما عرفنا هو الطريق المستقيم الذي لا ينحرف ولا يلتوي كأنه يقصد قصدا الى غايته في اعتدال وسداد ، بخلاف الطريق الجائر ، فهو المنحرف الذي لا يوصل الى الغاية ولا يقف عندها . ومعنى الآية أن الله سبحانه يبين الطريق المستقيم المعتدلة بالرسل والبراهين ــ وهي طريق الاسلام ــ ومن الطريق ما يكون جائرا ومنحرفا عن الحق فلا يهتدي به ، والمقصود بأهل الطريق الجائر والله أعلم هم أهل الاهواء المختلفة وأهل الكفر .

وجاء في سورة فاطر قوله تعالى :

« ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ » (٢) .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : هذه الامة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام ، حتى يقول : ما هؤلاء ، وهو أعلم تبارك وتعالى ، فتقول الملائكة : هؤلاء جاءوا بذنوب عظام الا أنهم لم يشركوا بك ، فيقول الرب : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي ، وتلا عبدالله هذه الآية :

---

(١) سورة النحل الآية ٩ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

« ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ الَّذين اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنا ... »[1] .

وعن أبي سعيد الخدري كما في تفسير الطبري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : « (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) قال : هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة وعنى بقوله (الذين اصطفينا من عبادنا) : الذين اخترناهم لطاعتنا واجتبيناهم . وقوله (فمنهم ظالم لنفسه) يقول : فمن هؤلاء الذين اصطفينا من عبادنا ، من يظلم نفسه بركوبه المآثم واجترامه المعاصي ، واقترافه الفواحش (ومنهم مقتصد) وهو غير المبالغ في طاعة ربه ، وغير المجتهد فيما ألزمه من خدمة ربه ، حتى يكون عمله في ذلك قصدا (ومنهم سابق بالخيرات) وهو المبرز الذي قد تقدم المجتهدين في خدمة ربه وأداء ما لزمه من فرائضه ، فسبقهم بصالح الاعمال ، وهي الخيرات التي قال الله جل ثناؤه : (باذن الله) يقول : بتوفيق الله اياه لذلك » .

ولقد أحس صاحب « ظلال القرآن » ان صدر هذه الآية يحوي كلمات جديرة بأن توحي لهذه الامة بكرامتها على الله ، كما توحي اليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وتلك الوراثة فقد أكرمها الله بالاصطفاء والجزاء ، والفريق الاول ولعله تقدم في الذكر لأنه كثير في العدد ، تزيد سيئاته في العمل على حسناته فهو ظالم لنفسه ، والثاني هو الوسط المقتصد الذي تتعادل سيئاته وحسناته ، والفريق الثالث سابق بالخيرات باذن الله ، تربي حسناته على سيئاته ، وفضل الله يشمل الجميع، فكلهم ينتهي الى الجنة والى النعيم مع تفاوتهم في الدرجات ، وأعظم به من جزاء ومن ثواب : « جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب

(١) سورة فاطر ، الآية ٣٢ .

ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » .

وكذلك تعرض الرازي المفسر ، فقد ذكر المراتب الثلاث ، وأورد أقوال العلماء في الظالم والمقتصد والسابق ، وجاء في هذه الاقوال ذكر المقتصد بالخير والتوسط ، ثم انتهى الرازي الى أن المختار عنده هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله ، وارتكب مناهيه ، فانه واضع للشيء في غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة ، وان لم يوفق لذلك، وندر منه ذنب وصدر عنه اثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق ، والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير ، يقع في قلبه فيسبق اليه قبل تسويل النفس ، والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس ، والظالم تغلبه النفس ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الامارة وأمرته فأطاعها ظالم ، ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ، ومن قهر نفسه فهو السابق » .

وفي سورة لقمان جاء قول القرآن :

« وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ » (١) .

تواضع في مشيك اذا مشيت ولا تستكبر ، ولا تستعجل ، بل اعتدل واتئد . والقصد في المشي يبين هنا المشية المعتدلة القاصدة التي تليق بالانسان وتنبغي له ، فالقصد من الاقتصاد ، وهو عدم الاسراف ،

(١) سورة لقمان ، الآية ١٩ .

وعدم اضاعة الطاقة الحسية الجسمية في التبختر والاختيال والتثني ، فينبغي أن تكون المشية قاصدة الى هدف، لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر، بل تتجه الى غايتها ومقصدها في انطلاق واعتدال .

ولقد قالت سورة لقمان قبل الآية السابقة :

« وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً »[1] .

وعدم ذلك قد يكون بضده ، وهو مشية المتماوت البطيء الذي يبدي من نفسه الضعف تزهدا ، ولذلك قال : واقصد في مشيك ، أي كن وسطا بين الطرفين المذمومين .

ولنلاحظ هنا أن القصد يكون في كثير من الامور : في التفكير ، وتكوين الرأي ، واصدار الحكم ، والعمل ، والقول ، والمشي ، والحركة، والنوم ، والراحة ... الخ .

ويقول القرآن المجيد في سورة لقمان أيضا :

« وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلى البَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ »[2] .

اذا غشي هؤلاء موج كالظلل فخافوا الغرق ، فزعوا الى الله بالدعاء والطاعة ، لا يشركون به هنالك شيئا ، ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره ، فلما نجاهم من الغرق والهلاك فمنهم مقتصد ، وهو

(١) سورة لقمان ، الآية ١٨ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٢ .

الذي على صلاح من الامر ، وما يكفر بآياتنا وحججنا الا كل غدار بعهده جحود للنعم .



وننتقل الى فضيلة القصد في السنة . ها هوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة » .

وقد ورد في مسند الامام أحمد بن حنبل هذه الجملة من حديث : « وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا » . كما جاء فيه أيضا : « عليكم هديا قاصدا » أي طريقا معتدلا ، قالها ثلاث مرات .

وفي الحديث : « ما عال من اقتصد ولا يعيل » أي ما افتقر من لا يسرف في الانفاق ولا يقتر .

وجاء في صحيح البخاري : « القصدَ القصد تبلغوا » أي التزموا القصد .

وأخرج ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يصلي على صخرة ، فأتى ناحية ، فمكث ثم انصرف ، فوجده على حاله ، فقام فجمع يديه ثم قال : « أيها الناس عليكم القصد ، عليكم القصد » .

وروى ابن حيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على رهط من أصحابه وهم يضحكون ، فقال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فأتاه جبريل فقال : ان ربك يقول : لا تقنط عبادي ، فرجع اليهم فقال : سددوا وقاربوا . ومعنى أمر النبي بالسداد والمقاربة أنه صلى الله عليه وسلم بعث ميسرا مسهلا ، فأمر أمته بأن يقتصدوا في الامور ، لأن ذلك يقتضي الاستدامة عادة .

وفي البخاري : « سددوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من

الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا » أي الزموا الطريق الوسط المعتدل ، واقصدوا السداد وهو الصواب ، ولا تُفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة . لئلا يفضي بكم ذلك الى الملال فتتركوا العمل . والغدو السير أول النهار ، والرواح السير في النصف الثاني من النهار ، والدلجة سير الليل .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب القصد في الحياة ، ويضرب في ذلك القدوة والاسوة : كان يحب القصد في الصلاة والخطبة ، فكانت صلاة رسول الله قصدا ، وكانت خطبته قصدا ، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ، كما روى مسلم وابن حنبل .

وكان يحب القصد في الطعام ، وهو القائل عليه الصلاة والسلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

أما بعد ، فألهمني الله واياك السداد في القول ، والرشاد في العمل ، والقصد في الحياة .

كف الأذى

مادة « الكفّ » تدل على القبض ، ومن ذلك كف الانسان لأنها تقبض على الشيء . ويقال : كففت فلانا عن الامر وكفكفته . وكف الانسان الشيء أي جمعه ، وكف الانسان عن الامر أي امتنع ، وكفكفت دمع العين أي منعته ، وكف يده عنه أي امتنع عن ايذائه .

وكف الاذى خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم ، وقد روى ابن ماجه حديثا يقول : « لا ورع كالكف » . والمراد من فضيلة الكف هو أن يمنع الانسان أذاه أيا كان ، في قول أو عمل أو تصرف ، وأن يحرص على ان يقدم الخير ، فان لم يستطع فعل الخير فلا أقل من منع الاذى وكف الشر ، وقد أشار القرآن المجيد الى هذا المعنى في قوله في سورة النساء :

« أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ » (١) .

أي امنعوا أذاكم .

والكف عن الشر صفة من صفات الله تعالى ، وفي ذلك تكريم أي

(١) سورة النساء ، الآية ٧٧ .

تكريم لهذه الفضيلة القرآنية ، فالله تعالى يقول في سورة النساء :

« فَقَاتِلْ في سَبيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً » (١) .

فهو سبحانه الذي دفع شر الكافرين ، ومنع تطاولهم مرات كثيرة عن المؤمنين ، وهو الذي يضعف قوة الكافرين ، فلا يقدرون أن يعتدوا على المؤمنين .

ويقول الحق تعالى في سورة المائدة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، فكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ » (٢) .

فالله تعالى هو الذي كف الاذى ، ومنع أولئك الاعداء عن الاعتداء، وحال بينهم وبين الايذاء .

ويقول الله تعالى مخاطبا عيسى عليه السلام في سورة المائدة :

« وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبَيِّناتِ فقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » (٣) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٤ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١١ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٠ .

أي دفعت شر بني اسرائيل عنك حين هموا بقتلك ، ومنعتهم أن يؤذوك .

وفي رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم معنى كف الاذى ومنع الشر ، فالله تعالى يقول لرسوله في سورة سبأ :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ » [1] .

يقول الاصفهاني : أي كافا لهم عن المعاصي ، والهاء في الكلمة للمبالغة . ويقول الرازي : « فيه وجهان : أحدهما : كافة أي رسالة كافة ، أي عامة لجميع الناس ، تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها . والثاني : كافة أي أرسلناك كافة ، تكف الناس من الكفر ، والهاء للمبالغة على هذا الوجه » .

ويقول تعالى في سورة التوبة :

« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كما يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ معَ الْمُتَّقِينَ » [2] .

قيل ان معناه : قاتلوهم كافين لهم كما يقاتلونكم كافين .

ويقول التنزيل في سورة النساء :

« سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ، كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فيها ، فإِنْ لَمْ

---

(1) سورة سبأ ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٣٦ .

يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً » (1) .

فالقرآن هنا يوجه الى ما ينبغي من موقف الصرامة والشدة في وجوه أولئك المعتدين الخائنين ، الذين لا يكفون أيديهم عن العدوان والاعتداء. والقرآن هنا يدعو الى قتالهم والقضاء عليهم ، جزاء لمكرهم وغدرهم ، فاذا لم يمتنع هؤلاء عن ايذائكم ويمنعوا شرهم فقاتلوهم بلا هوادة .



والكف أنواع وألوان ، منها كف النفس عن خواطر السوء ، وكف العقل عن الريبة والشك والظن ، وكف اللسان عن كلمة الاذى ، وكف العين عن النظر الى الحرام ، وكف اليد والجوارح عن المعاصي ، وكف الغير بنهيه عن المنكر ودعوته الى الخير وأمره بالمعروف ، ولقد روى أبو داود والترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « اذكروا محاسن موتاكم ، وكفوا عن مساويهم » . ولقد قلت في كتابي : « من أدب النبوة » هذه العبارة : « الحكمة في النهي عن سب الاموات بليغة عميقة، فالانسان يجب أن يتعود لسانه الكلمة الطيبة ، وأن يحذر نهش الاعراض وأكل لحوم الناس ، وبخاصة الاموات ، لأنهم لا يملكون دفاعا عن أنفسهم ، ولا ردا على المفتريات التي توجه اليهم ، ولأنهم من جهة أخرى قد صاروا الى من بيده الحساب والثواب والعقاب ، ولذلك قال سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام : « لا تسبوا الاموات فانهم افضوا الى ما قدموا » .

(1) سورة النساء ، الآية ٩١ .

ومن حكمة هذا النهي أيضا اغلاق الباب دون ايذاء الاحياء ، فقد يسب الانسان شخصا مات فيغضب لذلك السب ابنه أو أخوه أو قريبه أو صديقه ، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك حيث قال : « لا تسبوا الاموات فتؤذوا به الاحياء » .

ولقد روى الترمذي أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

قيل يا رسول الله ، ننصره اذا كان مظلوما ، فكيف ننصره اذا كان ظالما ؟.

فقال رسول الله : « تكفه عن الظلم فذاك نصرك اياه » . وهذا الكف من قبيل ما أشرنا اليه ، وهو كف الغير عن الاذى بطريق النهي عن المنكر.

وقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اياكم والجلوس على الطرقات .

فقالوا : ما لنا بد ، انما هي مجالسنا نتحدث فيها .

قال : فاذا أتيتم الى المجالس فأعطوا الطريق حقها .

قالوا : وما حق الطريق ؟.

قال : غض البصر ، وكف الاذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

ونعود الى شرح هذا الحديث في كتابي « من أدب النبوة »[1] فنجده يقول : « الحق الثاني هو كف الاذى ، أي منع الاذى عن الناس ، سواء

---

(١) انظر كتابي « من ادب النبوة » ، صفحة ٢٨ . نشر المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، طبع مطابع الاهرام التجارية ، سنة ١٩٧١ م .

أكان هذا الاذى من الجالس ، أو كان هناك أذى ويستطيع الجالس أن يزيله ، ولذلك قال الرسول : « لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة ، في شجرة قطعها من ظهر الطريق ، كانت تؤذي المسلمين » . وقال أبو هريرة للنبي : يا رسول الله ، علمني شيئا انتفع به . قال : « اعـزل الاذى عن طـريق المسلمين » . وروى الترمذي بسند حسن الحديث التالي : « واماطتـك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة » .

وقد ذكر مسند الامام أحمد بن حنبل حديثا جاء فيه : « كف أذاك عن الناس » والاذى هنا قد يكون بالقول أو العمل أو الاشارة . كمـا ذكر المسند حديثا جاء فيه : « كف نفسك ويدك » .

وروى أبو داود : « أفلح من كف يده » .

وفي مسند ابن حنبل : « كفوا السلاح » .

وروى ابن ماجه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن ينصحه ، فأخذ النبي بلسانه ، وقال له : « تكف عليك هذا » . كما جـاء في الحديث : « كف لسانك الا من الخير » .

وقد ذكر ابن الاثير عبارة وردت في الحديث تقول : « يكف مـاء وجهه » أي يصونه ويجمعه عن بذل السؤال ، وقد يوضـح هـذا مـا رواه البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل النـاس : أعطوه أو منعوه » .

ويتعرض القشيري على طريقته الخاصة به لتفسير قوله تعالى : ألم تر الى الذين قيل لهم » فقال :« أخرجوا أيديكم عن أموركم ، وكلوها الى معبودكم ، ويقال : اقصروها عن أخذ الحرام والتصـرف فيـه . ويقال :

امتنعوا عن الشهوات . ويقال : كفوا أيديكم الا عن رفعها الى الله في السؤال بوصف الابتهال » .

أما بعد فان ديدن المسلم هو أن يصون نفسه وغيره من الاذى مهما كان نوعه أو قدره ، وان بعض الناس تضيق بهم جنبات الحياة ، ويضيق بهم الاحياء من سوء أقوالهم وأعمالهم ، ومن أذاهم الذي يبسطونه على الناس ، تارة بألسنتهم ، وتارة بأعمالهم ، وتارة باحتقارهم ، الى غير ذلك من ألوان الاذى ، فليحرص المؤمن على أن يعيش في الحياة كالعافية ، ان لقيها الناس فرحوا بها ، وان غابت عنهم حنوا اليها وتمنوا لقاءها .

وعلى الله قصد السبيل .

التأويب

تقول اللغة : آب الرجل يؤوب ايابا ، والمآب المصدر ، والأوب ، الاستقامة والقصد ، وجاؤوا من كل أوب ، أي من كل طريق وناحية ، ويقال : أنا على أوب فلان أي طريقته ، والأوبة والتأويب : الرجوع . ويقال : آب الرجل اذا رجع ، وأوّب تأويبا ـ بتشديد الواو المفتوحة : رجّع ، فهو أوّاب ، والأوّاب : صفة مدح للرجّاع عن كل ما يكرهه الله الى ما يحبه ، وقيل الأواب كالتوّاب : الراجع الى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطاعات ، ومنه قيل للتوبة : أوبة .

والتأويب في مجالنا هذا خلق من أخلاق القرآن الكريم ، وفضيلة من فضائل الاسلام العظيم ، وجانب من هدي الرسول عليه الصلاة والتسليم .

وقد ذكر القرآن الكريم فضيلة التأويب في أكثر من موطن ، وتوّج هذه المواطن باخبارنا أن التأويب من أخلاق الانبياء والمرسلين ، ويا لها من مكانة . هاهوذا القرآن يقول في سورة «ص» هذه الآية :

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » [1] .

---

(١) سورة ص ، الآية ١٧ .

أي ان داود رجّاع عما يكرهه ربه من الذنوب ، الى ما يرضيه من الطاعات ، وقد كان داود مطيعا لله كثير الصلاة ، وكان كثير الرجوع الى الله في أموره كلها .

ويقول القرآن الكريم في السورة نفسها :

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » (١) .

أي انه رجّاع الى طاعة الله ، في النعمة بالشكر وفي المحنة بالصبر، وقال بعض المفسرين : ان الأواب هنا معناه التائب المسبح ، الذي يذكر ذنبه في الخلاء فيستغفر الله منه ، أو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقد أشار الرازي الى أن قوله تعالى في الآية السابقة : « انه أواب » كالتعليل ، فهو يدل على أنه انما كان نعم العبد لأنه كان أوّابا ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع الى الله تعالى في أكثر الاوقات وفي أكثر المهمات ، كان موصوفا بأنه العبد ، وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه . لأن كمال الانسان في أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات الا باعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع الى الله تعالى ، فكان أوّابا ، فثبت أن كل من كان أوّابا وجب أن يكون نعم العبد .

ويقول القرآن المجيد في سورة «ق» :

« وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذا ما تُوعَدُونَ

---

(١) سورة ص ، الآية ٣٠ .

لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » [1] .

فوعد الله بالجنة يكون لكل راجع عن معصية الله لطاعته ، واذا ذكر الله في الخلاء ذكر ذنوبه فاستغفر منها ، وهو حفيظ على فرائض الله وما استودعه من حقه ونعمته .

يقول الطبري في تفسير الآية : « وأولى الاقوال في ذلك بالصواب أن يقال : ان الله تعالى ذكره وصف هذا التائب الأواب بأنه حفيظ ، ولم يخص به حفظ نوع من أنواع الطاعات دون نوع ، فالواجب أن يعم كما عمم جل ثناؤه ، فيقال : هو حفيظ لكل ما قربه من ربه من الفرائض والطاعات ، والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والاستغفار .

وقد ذكرت الآيات هنا أن الاواب من صفاته أنه من خاف عقاب الذي وسعت رحمته كل شيء وهو غائب عنه لم يره ، وجاء في الآخرة بقلب راجع اليه تعالى .

وقال الفخر الرازي في تفسير الأوّاب الحفيظ في الآية السابقة هذه هذه العبارة : « والأوّاب الرجّاع ، قيل هو الذي يرجع من الذنوب ويستغفر ، والحفيظ الحافظ الذي يحفظ توبته من النقض . ويحتمل أن يقال : الاوّاب هو الرجّاع الى الله بفكره ، والحفيظ الحافظ الذي يحفظ في ذكره ، أي يرجع اليه بالفكر ، فيرى كل شيء واقعا به وموجودا منه ، ثم انتهى اليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء . والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة ، أي يكون كثير الاوب شديد الحفظ . وفيه وجوه أخر أدق ، وهو أن الاواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الاقبال على ما سواه ، والحفيظ هو الذي اتقى الشرك والتعطيل ، ولم ينكره ولم يعترف بغيره ، والاواب هو

---

(1) سورة ق ، الآية ٣١ ـ ٣٣ .

الذي لا يعترف بغيره ، ويرجع عن كل شيء غير الله تعالى ، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه الى شيء مما عداه » .

وقال القرآن الكريم في سورة الاسراء :

« رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بما في نُفُوسِكُمْ إنْ تكُونُوا صَالِحِينَ فإنَّهُ كانَ للأَوّابِينَ غَفُوراً » (١) .

أي الله مطلع على نفوسكم ، فان كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم ، وكنتم أوابين أي رجاعين الى الله منقطعين اليه في كل الاعمال ، فسنة الله تعالى وحكمه في الاوابين انه غفور لهم ، يكفر عنهم سيئاتهم ، لأن الاواب من عادته وديدنه الرجوع الى الله تعالى ، والالتجاء الى فضله ، ولا يلتجىء الى شفاعة شفيع كما يفعل المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادا يزعمون أنه يشفع لهم ، بل هو يداوم على الرجوع الى ربه .

وجاء في تفسير القرطبي ان الله تعالى وعد بالغفران مع شرط الصلاح، والاوبة بعد الاوبة الى طاعة الله سبحانه وتعالى ، وأورد أقوالا في معنى الاواب فنقل عن سعيد بن المسيب أنه هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب . وعن ابن عباس ان الاواب هو الحفيظ الذي اذا ذكر خطاياه استغفر منها . وعن عبيد بن عمير : الاوابون هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل .

***

وقد أشارت السنة المطهرة الى فضيلة التأويب في أكثر من موطن ،

---

(١) سورة الاسراء ، الآية ٢٥ .

فجاء من دعاء السفر في الحديث : « توبا توبا لربنا أوبا » أي توبا راجعا مكررا .

وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الارض ثلاث تكبيرات ثم يقول : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده .

وعرفنا عن طريق السنة « صلاة الاوابين » وهي صلاة الضحى عند ارتفاع النهار وشدة الحر . وقد روى السيوطي في الجامع الصغير حديثا صحيحا يقول : « صلّ الصبح والضحى فانها صلاة الاوابين » . وروى مسلم : « صلاة الاوابين حين ترمض الفصال » وكلمة « ترمض » بفتح فسكون ففتح ، والفصال بكسر الفاء ، وهي أن تحمى الرمضاء ، والرمضاء هي الرمل ، والفصال هي الجمال ، وانما تحمى الرمضاء من شدة الحر ، مما يحرق أخفاف الابل فتبرك حينئذ .

وقد روى ابن المبارك في الرقائق من رواية ابن المنذر الحديث التالي مرسلا عن صلاة الاوابين : « من صلى بين المغرب والعشاء فانها صلاة الاوابين » وزكّى الغزالي في « الاحياء » هذا القول بحديث عبدالله بن عمر : « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء لم يتكلم الا بصلاة أو بقرآن ، كان حقا على الله أن يبني له قصرين في الجنة ، مسيرة كل قصر منهما مائة عام ، ويغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الارض لوسعهم » .

وقد تحدث الغزالي عن صلاة الضحى ـ صلاة الاوابين ـ في كتابه « الاحياء » ، وهو يذكر رواتب الصلوات فقال : « السابعة صلاة الضحى، فالمواظبة عليها من عزائم الافعال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات ، روت أم هانىء أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما

أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمان ركعات اطالهن وحسنهن ، ولم ينقل هذا القدر غيرها . فأما عائشة رضي الله عنها فانها ذكرت أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ويزيد ما شاء الله سبحانه . فلم تحدد الزيادة ، أي أنه كان يواظب على الاربعة ، ولا ينقص منها ، وقد يزيد زيادات . وروي في حديث مفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ست ركعات .

وأما وقتها فقد روى علي رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ستا في وقتين : اذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين ، وهو أول الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي ، واذا انبسطت الشمس ، وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعا . فالاول انما يكون اذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح ، والثاني اذا مضى من النهار ربعه بازاء صلاة العصر ، فان وقته أن يبقى من النهار ربعه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس الى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال الى الغروب ، وهذا أفضل الاوقات ، ومن وقت ارتفاع الشمس الى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة » .

وعاد الغزالي الى الحديث عنها حينما تحدث عن وظيفتي ربع النهار الاول فقال : « احداهما : صلاة الضحى ، وقد ذكرناها في كتاب الصلاة ، وأن الاولى أن يصلي ركعتين عند الاشراق ، وذلك اذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح ، ويصلي اربعا أو ستا أو ثمانيا اذا رمضت الفصال ، وضحيت الاقدام بحر الشمس ، فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله : «يسبحن بالعشيّ والاشراق» فانه وقت اشراق الشمس ، وهو ظهور تمام نورها ، بارتفاعها عن موازاة البخارات والغبارات التي على وجه الارض ، فانها تمنع اشراقها التام » .

ووقت الركعات الاربع هو الضحى الاعلى الذي اقسم الله تعالى به فقال : « والضحى والليل اذا سجى » . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، وهم يصلون عند الاشراق ، فنادى بأعلى صوته : «ألا ان صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال » . فلذلك نقول : اذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى ، وان كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفي وقتي الكراهة ، وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب الى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء. واسم الضحى ينطلق على الكل ، وكأن ركعتي الاشراق تقع في مبتدأ وقت الاذن في الصلاة ، وانقضاء الكراهة ، اذ قال صلى الله عليه وسلم : « ان الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا ارتفعت فارقها » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الارض وغبارها ، وهذا يراعى بالتقريب » .

والتأويب أمر ليس مقصورا على الانسان ، بل يتعداه الى الحيوان والجماد ، وهاهوذا القرآن المجيد يتحدث عن داود عليه السلام في سورة «ص» فيقول :

« وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ» (١) .

والمعنى أن كل واحد من الجبال والطير أواب رجاع ، أي كلما رجع داود الى التسبيح جاوبته ، فهذه الاشياء أيضا كانت ترجع الى تسبيحاتها، فكل ذلك مسبح لله .

ويقول القرآن في سورة « سبأ » :

---

(١) سورة ص ، الآية ١٩ .

« وَلَقَدْ آتَيْنا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيد »[1] .

وقد ذكر القرآن مادة المآب وهي تدل على الرجوع ، وانما يحسن هذا المآب ويسمو ذلك الرجوع اذا كان الى اللـه تبارك وتعالى . يقـول القرآن الحكيم في سورة آل عمران :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعامِ والحَرْثِ ذَلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ »[2] .

أي ذلك الذي سبق ذكره من الانواع الستة هو ما يستمتع به الناس في حياتهم الدنيا ، والله عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة التي تكون بعد موت الناس وبعثهم ، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع العاجل ، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل .

ويقول القرآن الكريم في سورة «ص» عن داود عليه السلام :

« وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ »[3] .

---

(١) سورة سبأ ، الآية ١٠ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤ .

(٣) سورة ص ، الآية ٤٠ .

أي حسن مرجع ومنقلب ينقلب اليه يوم القيامة ، وقيل حسن مصير ونعوذ بالله من شر المآب الذي يفضي بصاحبه الطاغية الى سوء العذاب . هذا هو القرآن الكريم يقول في سورة «ص» عن أصحاب النار :

« هَذا وَإنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مآبٍ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فبِئْسَ المِهادُ » [1] .

أي ان للكافرين شر المصير الذي يصيرون اليه يوم القيامة ، لأن مصيرهم الى جهنم ، واليها منقلبهم بعد وفاتهم .

* * *

وللصوفية طريقتهم الخاصة بهم في حديثهم عن الاوابين ، فالقشيري مثلا يتعرض لقوله تعالى في سورة «ق» عن الجنة وأهلها :

« وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنيبٍ » [2] .

فيقول ان الجنة يقربها الله من المتقين وهم خواص الخواص ويقال هم ثلاثة أصناف : قوم يحشرون الى الجنة مشاة ، وهم الذين قال فيهم ربهم :

« وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً » [3] .

---

(١) سورة ص ، الآية ٥٥ ـ ٥٦ .
(٢) سورة ق ، الآية ٣١ ـ ٣٣ .
(٣) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

ويرى القشيري أن هؤلاء هم عوام المؤمنين ، وقوم يحشرون الى الجنة ركبانا على طاعاتهم المصورة لهم بصورة حيوان ، وهم الذين قال فيهم ربهم :

« يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً » (١) .

وهؤلاء هم الخواص ، وأما خواص الخواص فهم الذين قال الله عنهم : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » أي جعلها الله قريبة دانية .

والأواب ــ كما يذكر القشيري ــ هو الراجع الى الله في جميع أحواله ، والحفيظ هو المحافظ على أوقاته ، أو محافظ على حواسه في الله، حافظ لأنفاسه مع الله . والأواب الحفيظ يخشى الفراق ، ولكنها خشية مقرونة بالانس لانها خشية من الرحمن ، والخشية ألطف من الخوف ، وكأنها قريبة من الهيبة .

فلنسأل الله تعالى القادر على كل شيء أن يجملنا بفضيلة التأويب ، وأن يجعلنا من التوابين الاوابين ، انه العفو الغفور .

---

(١) سورة مريم ، الآية ٨٥ .

الطاعـة

تقول اللغة : أطاع اذا أذعن وانقاد ، وأطاع له : أي لم يمتنع عليه ، وطاوعه أي وافقه ، وهو طوع يديك : أي منقاد ، والمطواع الكثير الطاعة، وطاوعت المرأة زوجها طواعية أي استجابت له فيما يريد ، والتطوع هـو التبرع بما لا يلزم كالتنفل ، ومنه قوله تعالى : «فمن تطوّع فهو خير له». وأطاع الامر أي اتبعه ولم يخالفه ، وطوّعت له نفسه : طاوعته وسهلت له وأجابته وأعانته .

والطاعة لها معنى ديني ، ينصرف الى الائتمار بأوامر الله تعالى ، ولها معنى أخلاقي وهو التقيد بالواجب ، ومجاوبة من يدعو اليه باستمرار ، وبهذا المعنى تصير الطاعة خلقا ، وتصبح فضيلة من فضائل القرآن الكريم، لأنها تثمر المبادرة الى الاستجابة كأنها عادة أو طبيعة .

ولقد ذكر القرآن مادة الطاعة في أكثر من مائة موضع ، وجعلها الحق جل جلاله صفة بارزة من صفات المؤمنين ، ولذلك يقول على لسانهم في سورة البقرة :

« وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ »[1].

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ .

أي سمعنا قولك وأطعنا أمرك ، أو سمعنا قول الله وقول رسوله سماع المطيعين ، وليس كالكافرين الذين قالوا : « سمعنا وعصينا » . ويقول الطبري عن الآية : سمعنا قول ربنا وأمره ايانا بما أمرنا به ، ونهيه عما نهانا عنه ، وأطعنا ربنا فيما ألزمنا من فرائضه ، واستعبدنا به من طاعته وسلمنا له .

ولقد تكرر في التنزيل المجيد الحديث عن طاعة الله ورسوله ، لأن طاعة الله هي الاساس ، وطاعة الرسول من طاعة الله ، فقال القرآن في سورة آل عمران :

« وأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » [1] .

وقال في سورة النساء :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ » [2] .

وقال في سورة النور :

« إِنَّما كانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إِلى اللهِ وَرَسولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحون » [3] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٣٢ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .
(٣) سورة النور ، الآية ٥١ .

أي سمعنا ما قيل لنا ، وأطعنا من دعانا الى حكم الله عز وجل . وقال في سورة الحجرات :

« وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً » (١) .

ان تأتمروا بأمر الله وأمر رسولـه لا يظلمكم من أجـور أعمالكم شيئا ، ولا ينقصكم من ثوابها شيئا ، وقد أكد الحديث الذي رواه مسلم هذا المعنى ، وهو قوله : « من يطع الله ورسوله فقد رشد » . كما أكـد القرآن أن طاعة الرسول من طاعة الله ، فقال في سورة النساء : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » بل عمم القرآن هذا الحكم على جميع المرسلين فقال في سورة النساء أيضا :

« وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلا لِيُطاعَ بإِذْنِ اللهِ » (٢) .

وقد جاء في سورة الشعراء عدة مرات قول القرآن عـلى لسـان المرسلين :

« إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ » (٣) .

وفيما يتعلق برسولنا محمد عليه الصلاة والسلام روى ابن حنبـل الحديث : « من أطاع نبيه كان من المهتدين ». وجاء قول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من أطاعني دخل الجنة » . وجعل الرسـول

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٤ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٦٤ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٠٧ ـ ١٠٨ .

الطاعة لأميره الذي ولاه من صميم الطاعة للرسول ، فروى البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : « من أطاع أميري فقد أطاعني »

والطاعة المأمور بها في الاسلام أنواع وألوان ، فهناك طاعة الله ، وطاعة الرسول ، وطاعة أولي الأمر ، وطاعة الوالدين ، وطاعة القائد أو الامير ، وطاعة الناصح . وقد روى الامام ابن حنبل الحديث القائل : « أطع أباك » . ومن باب أولى طاعة الام ، لان حق الام مقدم على حق الاب في الاحسان وحسن المعاملة ، والطاعة ، ولقد صح أن صحابيا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله ؟. قال : أمك . قال : ثم من ؟. قال : أمك . قال : ثم من ؟. قال : أمك . قال: ثم من ؟. قال : أبوك .

ولكن طاعة الوالدين في الاسلام مشروطة بأن تكون في دائرة ما أباحه الله ، أما ما حرمه فلا طاعة فيه على الابن للابوين ، يقول الله تعالى عن الابوين في سورة لقمان :

« وَإِنْ جاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما ليسَ لَكَ بهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصَاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْرُوفاً » (١) .

يقول الطبري : وان جاهدك أيها الانسان والداك على أن تشرك بي في عبادتك اياي مع غيري ، مما لا تعلم أنه لي شريك ــ ولا شريك له تعالى ذكره علوا كبيرا ــ فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي .

ومن أنواع الطاعة في الاسلام طاعة المرأة لزوجها ، والحديث يقول: « خير النساء من اذا أمرها زوجها أطاعته ، واذا نظر اليها سرته ، واذا غاب عنها حفظته في ماله وعرضه » . ولكن الطاعة هنا أيضا مشروطة بأن لا

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٥ .

تكون في معصية ، فقد روى البخاري قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « لا تطيع المرأة زوجها في معصية » .



ونفهم من حديث القرآن أن ثواب الطاعة جزيل جليل ، ومن ثوابها ظفر الانسان بالكرامة العظمى من الله جل جلاله ، وحصوله على الفوز العظيم من الله ولذلك يقول القرآن في سورة النساء :

« وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فيها وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ » (١) .

أي من يطع الله ورسوله في العمل بما أمره الله به، والوقوف عند ما حدّه له ، ويجتنب ما نهاه عنه ، يدخله جنات تجري من تحت غروسها وأشجارها الانهار ، باقين فيها أبدا ، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، ولا يفنون ،وذلك هو الفوز العظيم .

وقد عاد القرآن الى تأكيد هذا المعنى فقال في سورة النور :

« وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفائِزُونَ » (٢) .

من يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى ، ويسلم لحكمهما له وعليه ، ويخف عاقبة معصية الله ، ويتق عذاب الله ، فأولئك هم الفائزون برضى الله تعالى عنهم يوم القيامة وبنعيمه العظيم ، وأمنهم من عذابه الاليم .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٣ .
(٢) سورة النور ، الآية ٥٢ .

ومن ثمرات الطاعة الحصول على الاجر الحسن والثواب الجميل . ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة الفتح :

« فإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً » [1] .

أي أن تطيعوا الله في اجابتكم اياه اذا دعاكم الى الجهاد ، يعطكم الله على اجابتكم أجرا حسنا عظيما ، وهو الجنة .

ومن ثواب الطاعة حسن الصحبة في الجنة مع أهل الشرف والمكانة. فذلك حيث يقول الله تعالى في سورة النساء :

«وَمَنْ يُطعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصّالِحينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ، ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفَى باللهِ عَلِيماً » [2] .

أي من يطع الله والرسول بالتسليم لامرهما ، واخلاص الرضا بحكمهما ، والانتهاء الى أمرهما ، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله ، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته ، والتوفيق لطاعته في الدنيا وفي الآخرة ، اذا أدخل الجنة ، مع النبيين وأتباعهم الصديقين ، الذين صدقوهم واتبعوا منهاجهم ، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، والصالحين الذين صلحت سريرتهم وعلانيتهم .

ولقد روي أن رجلا من الانصار جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو محزون ، فقال له النبي : يا فلان مالي أراك محزونا ؟.

---

(١) سورة الفتح ، الآية ١٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٦٩ و٧٠ .

قال : يا نبي الله شيء فكرت فيه .

فقال ما هو ؟

قال : نحن نغدو عليك ونروح ، تنظر في وجهك ونجالسك ، غدا ترفع مع النبيين ، فلا نصل اليك .

فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فأتاه جبريل بهـذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

فبعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم فبشره .

وقد صح عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « ثلاث مهلكات وثلاث منجيات ، فالثلاث المهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه ... » . فالرسول يحذر من اطاعة الهوى والشح حين يحذر من الهوى المتبع والشح المطاع ، وهو أن يطيعه صاحبه في منع الحقوق التي أوجبها الله عليه في ماله .

كما أن القرآن يبين حسرة الذين لم يرزقهم الله نعمة الطاعة أو فضيلة الاستجابة ، فيقول في سورة الاحزاب مصورا حسرة الكفار على عدم الطاعـة :

« يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولاَ » [1] .

* * *

واذا كانت الطاعة فضيلة حميدة ، ومنقبة مجيدة ، فان الرسول عليه

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٦٦ .

الصلاة والسلام لم يدع التركيز والتأكيد على أنه لا طاعة في المعصية مهما كان الآمر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». وقال : « اسمعوا وأطيعوا ، ولو تأمر عليكم عبد حبشي ، ما لم تؤمروا بمعصية فاذا أمرتم بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن هنا قال القرآن في سورة العنكبوت عن الوالدين : « وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » أي اذا حاول والداك حملك لتشرك بي ما لا تعلم أنه شريك لي ـ لأنه لا اله الا الله ـ فلا تطع والديك في ذلك ، ومن هنا روى ابن حنبل قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمن لم يطع الله » .

ويقول القرآن في سورة آل عمران :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَروا يَرُدُّوكمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ »[1] .

ان أصغيتم الى قول اليهود والمنافقين يرجعوكم كفارا كما كنتم من قبل ، فترجعوا خاسرين لأنفسكم ، ولا خسران أشد من أن تتبدلوا الكفر بالايمان ، والنار بالجنة .

ويقول أيضا في سورة آل عمران :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ »[2] .

ان تطيعوا هؤلاء اليهود ، وتقبلوا قولهم ، وسعيهم لاحياء الفتنة

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٩ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٠ .

بينكم يرجعوكم كفارا بعد ايمانكم .

وتأويل الآية كما يذكر الطبري : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقروا بما جاءهم به نبيهم صلى الله عليه وسلم من عند الله ، ان تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتاب من أهل التوراة والانجيل ، فتقبلوا منهم ، ما يأمرونكم به ، يضلوكم ، فيردوكم بعد تصديقكم رسول ربكم ، وبعد اقراركم بما جاء به من عند ربكم كافرين ، جاحدين لما قد آمنتم به وصدقتموه من الحق الذي جاءكم من عند ربكم ، فنهاهم جل ثناؤه أن ينصحوهم ، ويقبلوا منهم رأيا أو مشورة ، ويعلمهم تعالى ذكره أنهم لهم منطوون على غل وغش ، وحسد وبغض .

وفي السورة نفسها يقول الحق تبارك وتعالى :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا الَّذِين كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِين » [1] :

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، في وعد الله ووعيده ، وأمره ونهيه ، ان تطيعوا الذين كفروا وجحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، من اليهود والنصارى ، فيما يأمرونكم به ، وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم في ذلك ، وتنصحوهم فيما تزعمون أنهم لكم فيه ناصحون يردوكم على أعقابكم أي يحملوكم على الردة بعد الايمان ، والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الاسلام ، فتنقلبوا خاسرين ، أي ترجعوا عن ايمانكم ودينكم الذي هداكم الله له هالكين ، قد خسرتم أنفسكم ، وضللتم عن دينكم ، وذهبت دنياكم وآخرتكم .

ويؤكد القرآن التحذير والنهي عن الطاعة الآثمة التي تجر صاحبها الى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٩ .

الباطل والضلال ، فيقول القرآن في سورة الكهف :

« وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً » [1] .

لا تطع من شغلنا قلبه من الكفار عن ذكرنا، وآثر هوى نفسه على طاعة ربه تعالى ، وكان أمره ضياعا وهلاكا .

والذين يطيعون أهل الباطل سيندمون أشد الندم يوم لا ينفع الندم، يقول القرآن في سورة الأحزاب عن الكافرين :

« وَقالوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فأَضلُّونا السَّبيلا » [2] .

أي قال الكافرون يوم القيامة في جهنم : ربنا انا اطعنا أئمتنا في الضلالة ، وكبراءنا في الشرك فأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى .

وينهى الله تبارك وتعالى عن طاعة المفسدين المتمادين في المعصية والجرأة على الله عز شأنه فيقول القرآن في سورة الشعراء :

« فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ ، وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ الَّذينَ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ » [3] .

أي قال صالح لقومه : فاتقوا عقاب الله تعالى أيها القوم على معصيتكم ربكم ، وخلافكم أمره ، وأطيعوني في نصيحتي لكم ، وانذاري اياكم

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٨ .
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٦٧ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٥٠ ــ ١٥٢ .

عقاب الله ترشدوا ، ولا تطيعوا أيها القوم أمر المسرفين على أنفسهم ، في تماديهم في معصية الله واجترائهم على حرماته .

ويمضي القرآن في النهي عن الطاعة الآثمة التي تقود الى الشر والاثم، فيقول في سورة الانعام :

« وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَن في الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبيلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وإنْ هُمْ الا يَخْرُصُونَ » (١) .

ان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن دين الله ، ومحجة الحق والصواب ، فيصدوك عن ذلك ، وهم لا يتبعون الا الظنون الخاطئة والاوهام الباطلة ، وما هم الا كاذبون .

ويقول القرآن الكريم في سورة الانسان :

« فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً »(٢).

الزم القيام بأحكام الله تعالى وأوامره ، ولا تطع في المعصية مذنبا أو كافرا .

ويقول القرآن في سورة العلق :

« كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » (٣) .

نزلت الآية في أبي جهل ، كان ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، ويقول : لئن رأيت محمدا يصلي لأطأنّ عنقه . فأمر الله تعالى

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١١٦ .
(٢) سورة الانسان ، الآية ٢٤ .
(٣) سورة العلق ، الآية ١٩ .

نبيه بالمداومة على الصلاة له والتقرب منه .

ويقول القرآن في سورة القلم :

« فَلا تُطِعِ المُكَذِّبِينَ » [1] .

أي المكذبين بآيات الله ورسوله .

ويقول في السورة نفسها :

« ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ » [2] .

أي كل مكثر للحلف كذاب .

ويخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في أول سورة الاحزاب:

« يا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً » [3] .

جاء في تفسير الطبري : يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (يا ايها النبي اتق الله) بطاعته وأداء فرائضه . وواجب حقوقه عليك ، والانتهاء عن محارمه ، وانتهاك حدوده ، (ولا تطع الكافرين) الذين يقولون لك : اطرد عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك ، حتى نجالسك (والمنافقين) الذين يظهرون لك الايمان بالله ، والنصيحة لك ، وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالا ، فلا تقبل منهم رأيا ، ولا تستشرهم مستنصحا بهم ، فانهم لك اعداء (ان الله كان عليما حكيما) يقول : ان

(١) سورة القلم ، الآية ٨ .
(٢) سورة القلم ، الآية ١٠ .
(٣) سورة الاحزاب ، الآية الاولى .

الله ذو علم بما تضمره نفوسهم ، وما الذي يقصدون في اظهارهم لـك النصيحة ، مع الذي ينطوون لك عليه ، حكيم في تدبـير أمـرك وأمـر أصحابك ودينك ، وغير ذلك من تدبير جميع خلقه .

ولقد لفت القرآن بصائرنا وأبصارنا الى لون خبيث ونوع لئيم مـن الطاعة ، وهي الطاعة الكاذبة المخادعة ، التي يقول صاحبها بلسانه ما ليس في قلبه ، فيقول القرآن في سورة النساء :

« وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فإذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى باللهِ وَكِيلاً »[١] .

يقول بعض هؤلاء المخادعين لرسول الله صلى الله عليه وسلـم ان أمرك طاعة ، ولك منا الطاعة فيما تأمرنا به وتنهانا عنه ، فاذا خرجوا مـن عند الرسول غيروا كلامهم ، والله يعلم تغييرهم ويسجله عليهم .

ويقول القرآن في سورة النور :

« وَيَقُولُونَ آمَنَّا باللهِ وبالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَما أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ »[٢] .

يقول المنافقون اننا صدقنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله والرسول، ثم تكيد كل طائفة منهم كيدها ، من بعد ما قالوا هذا القول لرسول الله

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨١ .
(٢) سورة النور ، الآية ٤٧ .

عليه الصلاة والسلام ، وليس الذين يفعلون ذلك بمؤمنين ، لأنهم تركوا الاحتكام الى الله والرسول .

ويقول القرآن في سورة النور :

« وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ » (١) .

حلف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسول الله ، بأغلظ الايمان وأشدها ، لئن أمرتهم بالخروج معك للجهاد ، ليخرجن معك . قل لهم : لا تحلفوا فان هذه طاعة معروفة منكم ، ومعروف فيها الكذب والخداع .

ويقرب من هذا ما ذكره القرآن عن طائفة من المنافقين ، يعدون بالطاعة ثم لا يصدقون ، لأنهم لم يتحلوا بفضيلة الطاعة ، ولا خلق الاستجابة الكريم . يقول القرآن في سورة محمد :

« طاعةٌ وقولٌ مَعْرُوفٌ فإِذا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ » (٢) .

* * *

ويأتي الصوفية بعد ذلك ليتحدثوا عن فضيلة الطاعة على طريقتهم

---

(١) سورة النور ، الآية ٥٣ .
(٢) سورة محمد ، الآية ٢١ .

الخاصة بهم ، فنرى أحمد بن أبي الحواري يقول : « علامة حب الله طاعة الله » .

ويقول معروف الكرخي : « طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق » .

ويقول حاتم الاصم : « المنافق من يأخذ من الدنيا بالحرص ، ويمنع بالشك ، وينفق بالرياء ، والمؤمن يأخذ بالخوف ، ويمسك بالسنة ، وينفق لله خالصا في طاعة الله » .

وقال أيضا : « أصل الطاعة ثلاثة اشياء : الخوف والرجاء والحب . وأصل المعصية ثلاثة اشياء : الكبر والحرص والحسد » .

ويقول أبو سليمان الداراني : « سألت معروفا الكرخي عن الطائعين لله تعالى : بأي شيء قدروا على الطاعة ؟. قال : باخراج الدنيا من قلوبهم ، ولو كان منها شيء في قلوبهم ما صحت لهم سجدة » .

والمعروف عن بصراء الاعلام من هؤلاء أنهم كانوا يتطاوعون تطاوعا شاملا صافيا ، لأن كلا منهم يحرص على أن يدعو اخاه الى خير ، ولا يفكر في أن يدعوه الى شر ، ولذلك كان من مبادئهم قولهم : اذا قال لك صاحبك: هيا ، فقلت له : الى أين ؟ فلست بصديق » .

وصلاة وسلاما على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأدب اتباعه فاتقن تأديبهم وغرس فيهم فضيلة الطاعة المبادرة المسارعة الى الخيرات حتى أوصى المسلم ـــ فيما يرويه صحيح مسلم ـــ : لا ينزعن يدا من طاعة ، وكان المسلم يدخل باب الاسلام عن طريق المبايعة على السمع والطاعة . وهو صلوات الله

وسلامه عليه الذي كان يدعو ربه فيقول : اللهم اقسم لنا من خشيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك . وكان يدعو فيقول : اللهم ثبت قلبي على طاعتك.

نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا فضيلة الطاعة في كل خير ، والاستجابة لكل بر .

الفهرست